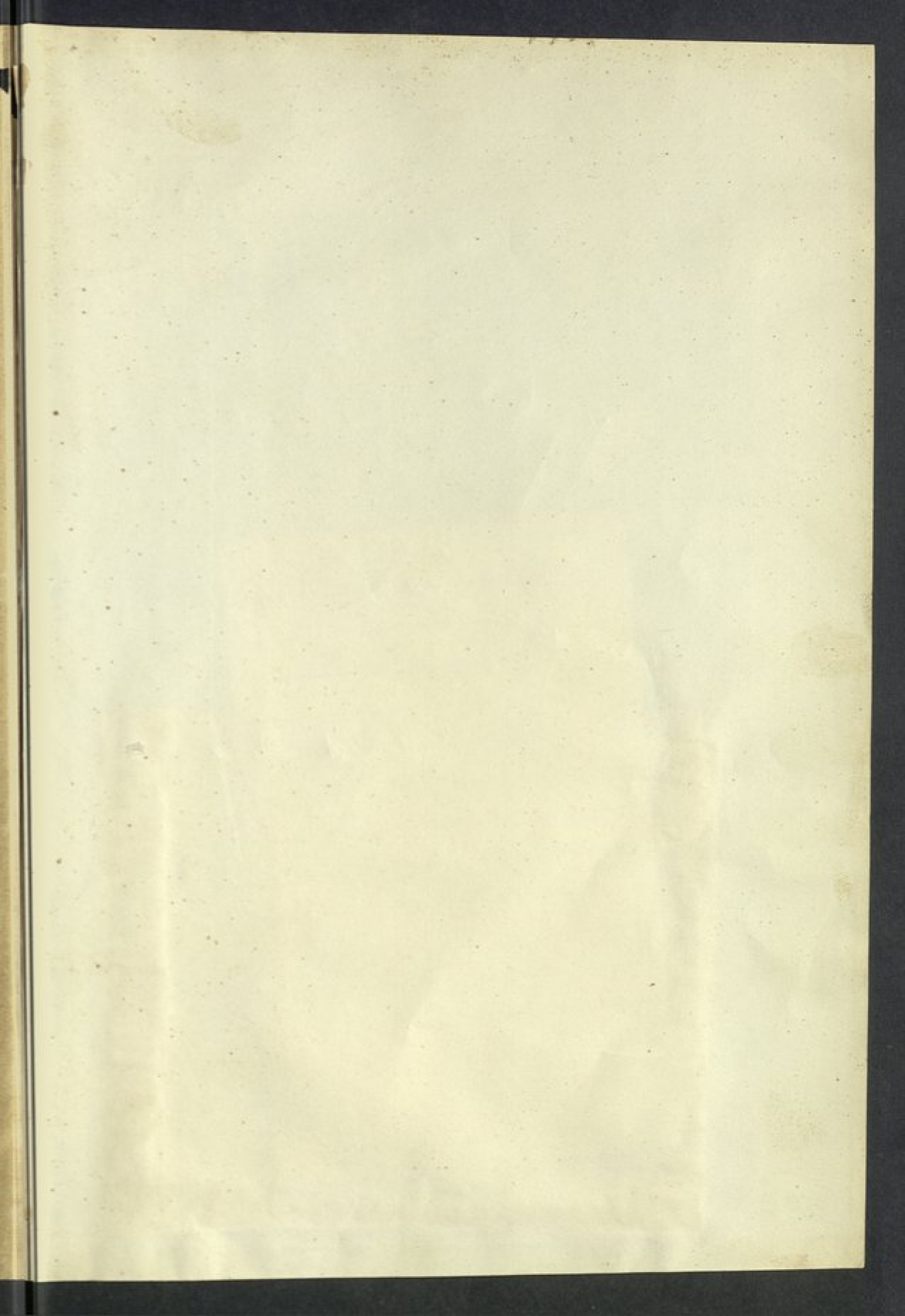
رزق

لبنان والدولة العثمانية



المجلة البطريركية السنة الثالثة عشرة الجزء الثالث

لبنان والدولة العثمانية في عهد فخر الدين المعني الثاني

١٥٩٠ — ١٦٣٥

بقلم

الخوراسقف بولس قرألي

مدير المجلة البطريركية ومحررها

١٩٥٢

مطبعة مصر الجديدة
١٦ شارع دمنهور — مصر الجديدة

كلمة للناشر

هذه خلاصة مقدمتنا على كتابنا « فخر الدين المعنى الثانى ودولة تسكانا » ، وضعناها خدمة للطلاب وتعميا للفائدة . وقد اهملنا ذكر المصادر والمراجع ، زيادة فى الايجاز . حتى إذا شاء الراغب فى الاطلاع عليها ، أو التوسع فى احد موضوعاتها ، فله أن يغترف بملء حفنتيه من كتابنا المذكور فى جزءيه الطليانى والعربى .

مصر الجديدة فى ٧ تشرين الثانى سنة ١٩٤٨

الخوراسقف بولس قرألى

أقسام الكتيب

يحق للأمير فخر الدين المعنى الثاني أن يعد لحسن إدارته وسياسته مؤسساً لوحدة لبنان الحالية ونهضته القومية والثقافية ، وهو ما يحـــدونا إلى تنظيم كلامنا فى فصلين : الادارة والسياسة :

القسم الأول

الادارة

البـــاب الأول

الأخلاق

من أمعن النظر فى رسم الأمـــير الذى توجنا به كتابنا ، توسم فيه النجابة والشجاعة والحزم مقرونة بالدعـة والحلم . وصفه أحمد الخالدى مترجمـه ومعاصره بقوله « كان سليم الصدر . متواضعاً . بشوشاً شجاعاً حليماً عند الغضب . ما سمعت عنه قط الكلمة الفاحشة . يصغي إلى المظلوم فينصفه . ويعطف على الغنى كما يعطف على الفقير . وهو ربع القامة . حنطي اللون ، مهاب ، جليل كريم . قوى العزم . شديد الحزم . يباشر بنفسـه تدبير مملكته وضبط أموالها . مطيع لله وللسلطان » .

وصرح الأب روجيـه Roger طبيبـه الخاص بقوله « كان حاد البصر والفهم . شجاعاً لا يقهر . ميالا إلى العلم متضلعاً من معرفة النجوم والفلسفة الروحانية والكيمياء وعلم النبات . وكان يهوى تشييد القصور الفخمة والجنائن الغناء والقلاع الحصينة » .

وأكد كارلو ماشنجي Macinghi أحد أعضاء البعثة التسكانية التي زارت لبنان سنة ١٩١٤ انه « محبوب من رعاياه لعطفه عليهم وملاطفته لهم . ومهاب من أعدائه لأنهم خبروا فيه البأس والحنكة في الحروب » .

وكان وطنياً صميماً يفضل على نفسه مصلحة الوطن . ففي السنة ١٦١٣ وهو في طريقه إلى المنفى ودع رجال دولته بهذه الكلمة « إذا قدر الله ووقعت في يد الاتراك إياكم أن تسلموهم القلاع حتى إذا تعهدوا لكم باطلاق سبيلي » .

وكان شهماً أبي النفس . عاد في السنة ١٦١٨ من ايطاليا مصمماً على هلاك يوسف باشا سيفا ، الذي سبب له النفي وحرق في غيابه قصره في دير القمر ، وانتزع منه مقاطعتي كسروان والفتوح . قصد أن يباغته في عكار عاصمته انما أفلت من يده . بيد ان رجاله اسروا حريمه وحفيده . ولما بشروه بهذه الغنيمة أجابهم ردّوا الطفل إلى والدته للهفتها عليه . واتركوا الحريم وسبيلهن وأحمالهن فلا شأن لهن في هذا الخصام .

ولجأ اليه مرة أحد أعدائه لحماه من ملاحقة الأمير مدلج . ولمـا طلب هذا اليه رأس اللاجىء لقاء مصاهرته ومبلغ كبير من المال أجاب الرسول : قل لسيدك . ان لم يكن فينا خير للنزيل فلا خير فينا للأمير .

الباب الثاني

العدل

« العدل أساس الملك » . كان الأمير فخر الدين يفهم هذه الحكمة بكامل معناها ومرماها ، أي واجب صيانة كل فرد من رعاياه من التعدي على شخصه وماله وكرامته .

كانت الفوضى سائدة في أنحاء الأمبراطورية العثمانية . فقضى عليها في مملكته . وكان الظلم رائد الحكام العثمانيين فأحل محله العدل في الرعية . وكان الجيش العثماني يستبيح البلاد التي يمر بها فيمنعه الأمير بالمال أو بالقوة من تخطي حدود دولته ، واثقاً أن رخاء رعاياه هو رخاء الدولة .

أما في القضاء فسار على خطة بسيطة رشيدة . احتفظ بالحكم في الجرائم وترك لرؤساء الطوائف والعشائر النظر في دعاوى رعاياهم المدنية والدينية .

نظم الغفر في جميع أنحاء مملكته الواسعة لتأمين السابلة وبنى الحصون والقلاع لمنع الغزو . حتى أن السائح الانكليزي سانديس Sandys الذي زار لبنان سنة ١٦١٠ كتب في رحلته

ويعامل الأمير بالحسنى جميع التجار من وطنيين وأجانب ويحميهم ويطلق لهم حرية التنقل ، فيمكنهم التجول بلا خوف فى كل أنحاء مملكته والدراهم على اكفهم ، وقال سانتى Santi رئيس البعثة التسكانية المذكورة أعلاه « لم يتمكن الأتراك من اجتياح بلاده فى الخمس والعشرين سنة التى حكم فيها » . اعتزم مرة الجيش العثمانى العائد من العجم قضاء الشتاء فى لبنان . فاستبقه إلى شمال طرابلس ووقف فى سبيله . ولما شاء الدخول قاتله وقتل منه عدداً وافراً . ثم رشى قواده بمبلغ كبير من المال فتحول إلى دمشق وكبدها من الخسائر عشرة أضعاف ذلك المبلغ .

كانت الطوائف غير المسلمة تعامل فى الشرق معاملة الخدم والعبيد فلا يسمح لها بحمل السلاح للدفاع عن الوطن ولا ركوب الخيل ولا لبس الأبيض . وتدفع لخزينة الدولة جزية . وكانت أرزاق أفرادها وحياتهم تحت رحمة كل ظالم وطامع . ولما استعان الأمير بالموارنة لقهر ابن سيفا والذود عن لبنان والتبسط وراء حدوده رأى من الاجحاف الابقاء على هذه المعاملة المذلة فساوى فى الحقوق والكرامة جميع رعاياه ومنح الجميع حرية العقيدة فأزال بهذا التدبير الحكيم العلة الأولى للنازعات الداخلية والتعديات والأطماع الفردية . واكتسب اخلاص العناصر المظلومة وثقة أمراء الغرب واحترامهم . ونشأ فى مجموع الأمة تضامن أخوي فى سبيل الدفاع عن الوطن الذى أصبح للجميع وأصبح الجميع له . فقام المسيحي يحارب بجانب المسلم والدرزى بالحماسة عينها ويفدى وطنه بالمهجة والمال .

وهذه المساواة لم تبخس المسلمين حقهم كمواطنين . فقد كان يراعيهم المراعاة كلها ويشيد لهم الجوامع والتكيات مع أنه درزى . ويشاركهم فى أعيادهم وصلاتهم وينفذ أحكام مشايخهم ويعين الرواتب للمؤذنين والعلماء والقدماء .

وخول اليهود الحماية والحقوق المدنية والحرية الدينية فكانوا عاملا صالحا فى اقتصاديات البلاد . واتخذ منهم الكتبة والحسبة فنظموا حسابات الدولة وأشغاله . وشجع التجار منهم على العمل فى بلاده . حتى قال عنهم سانتى فى التقرير الذي رفعه للغراندوق قزما الثانى سنة ١٦١٤ « إنهم فى لبنان أوفر جاها وثروة من المسيحيين » .

وولى عنايته طائفة الملكيين النازلين مقاطعات الكوره وطرابلس وعكار وساعدهم على الانتشار فى بقية المقاطعات اللبنانية لاسيما فى المتن ولبنان الجنوبي حيث نجد لهم حتى اليوم قرى ومزارع بجانب القرى المارونية ، وفى بعضها يعيش العنصران جنباً إلى جنب . ولما دب الخلاف بينهم بسبب بطريرك دخيل تدخل بنفسه فقضى على الخلاف واعتقل البطريرك المعتدى .

وبسط رعايته على الموارنة وحالفهم ضد يوسف باشا سيفا عدوه وعدوهم . فساعدوه على قهره . ولما انتزع منه مقاطعات جبة بشري وجبيل والبترون سلم زمامها إلى حكام من بني مذهبهم ورفع عنهم الظلم وخفف عنهم الضرائب وترك للأديار نصف المال المترتب عليها ، واتخذ منهم القواد والمستشارين والسفراء . وساعدهم على استعمار كسروان وتعميره والانتشار فى المتن والشوف والبقاع والسواحل . وحمى بطاريركهم يوحنا مخلوف لما لجأ إليه من جور ابن سيفا وساعده ورعاياه على امتلاك قرية مجد المعوش فى مقاطعة الشوف والاستقرار فيها قريباً منه .

واشتدت أواصر الاخاء بين الموارنة والدروز فاتحدوا قلباً واحداً على تحرير لبنان وتوسيعه . فكتب الأب ماجرى المالطي فى رحلته إلى لبنان سنة ١٦٢٤ يقول « بعد أن قتل ابراهيم باشا فى السنة ١٥٨٣ ستين ألفاً من الدروز لم يعد الأمير يستطيع أن يجند منهم أكثر من اثنى عشر ألفاً . بيد أن عشرين ألفاً من الموارنة يحاربون تحت لوائه . وأكثر قواده منهم » .

وكان الشيخ أبو نادر الخازن على جانب عظيم من البأس والدهاء والوطنية فأسند إليه أكبر مناصب الدولة ، من رئيس الفرسان إلى حاكم بيروت وكسروان إلى قائد عام وأمين سر الدولة والمستشار الأول . ونفحه بلقب « أمير جبل لبنان » الذى كان محتفظاً به لنفسه . وقلد الشيخ يونس أبا ضاهر حبيش أمانة خزنة دولته ، وجعله كبير قوامه ، ومنحه لقب « أمير فلسطين » بعد أن ساعده الموارنة على احتلال صفد والناصرة وطور طابور وطبرية .

وختم الدويهى كلامه عن فخر الدين بقوله « وفى دولة هذا الأمير ارتفع رأس النصارى وعمروا الكنائس والأديار وركبوا الخيول بسروج ولفوا شاشات بيضاء ولبسوا طوامين وزنانير مسقطة وحملوا القسى والبنادق المجوهرة . وقدم المرسلون الافرنج وسكنوا الجبل وكان أكثر عسكره من النصارى ومدبريه وخدمه موارنة » .

والحق يقال ، إذا كان فخر الدين مديناً للموارنة بالقسم الأكبر من مجده فهم مدينون له بنهضتهم القومية والدينية والثقافية .

وكان الأوربيون يلقبون الأمير بحامى النصارى لعطفه عليهم سواء كانوا عابرين أم مستقيمين فى دولته ، تجاراً أم رحالة أم أسرى . وكان يستفك أسراهم ويستخدمهم فى أعماله

الفنية . وإن رغبوا فى العودة إلى بلادهم أعادهم على نفقته . وقد يقدم عدداً من هؤلاء الأسرى على سبيل الهدية . وهو الذى صرح فى كتابه إلى سفير فرنسا لدى الفاتيكان بأنه لايمر بمملكته مسيحي دون أن يلق منه الحماية والعطف والمساعدة . وصرح البابا أوربانوس الثامن فى إحدى براءاته « أن لبنان قد أصبح بفضل الأمير فخر الدين الميناء الأمين الذى يلجأ إليه المسيحيون فى الشرق إذا عصفت فيهم أطماع الأتراك » .

ونال المرسلون منه الرعاية كلها ، للآمال الكبيرة التى كان يعلقها على رسالتهم فى منفعة بنى وطنه الأدبية والسياسية . ففى السنة ١٦٢٠ رافق بنفسه الآباء الفرنسيسكان حتى الناصرة حيث سلمهم دار السيد المسيح ونقدهم مالا لاصلاحها والاقامة بجانبها . وأوصى فيهم الأهالى خيراً ووعد كل أسرة منهم بزوجين من الأبقار إن أحسنت معاملة المرسلين .

فاستوطنت بالناصرة أسرة يمين المارونية الاهدنية ومن فروعها أغلب الأسر اللاتينية والمارونية فى مدينة المسيح . ووهب هؤلاء الرهبان أيضاً أربعة أديار أخر فى عكا وصيدا ولبنان الشمالى . ونزل عند رغبة الدولة الفرنسية فساعد الآباء الكبوشيين الفرنسويين على الاستقرار فى بيروت وعلى تأسيس مدرسة عامة ومطبعة تنشر المؤلفات فى شتى اللغات الشرقية . وقدم لهم الموارنة كنيستهم ودار الأسقفية فى هذه المدينة وديراً فى عينطورين ووضعوا تحت تصرفهم كنائسهم فى دمشق وحلب للتبشير والدعاية الكاثوليكية . وشيد لهم الأمير داراً عظيمة فى صيدا جلب إليها الماء الغزير من مسافة بعيدة . وأذن للآباء اليسوعيين فى دخول الناصرة والاقامة فيها .

وساعد أيضاً الآباء الكرمليين على الاقامة فى لبنان فسكنوا وادى قديشا تحت بشرى . وسار خلفاؤه على هذه الخطة الرشيدة حتى أصبح لبنان مركزاً خاصاً لعدد وافر من الرهبانيات الغربية رجالا ونساء . فاستفاد منهم وأفاد الشرق كله .

وهكذا تسنى للامير أن يساوى بين جميع رعاياه ويؤلف قلوبهم وينفخ فيهم روح التآلف والتضامن والوطنية الحقة ، التى أوقفت عند قدمى جبلهم الأشم كل تعد غريب ، كما تتكسر الأمواج الصاخبة على صخور سواحله . قال الأب هنرى لامنس فى تاريخ سوريا « بعد وفاة الأمير فخر الدين عادت الولايات السورية التى كان يحكمها إلى النير العثمانى . أما لبنان فحافظ على فكرة الاستقلال التى كونها الأمير فى أذهان رعاياه » .

وعمرت البلاد وأخصبت الأراضى واحتلت معاهد الدين والعبادة والعلم هضاب لبنان وأوديته وسهوله وسواحله . فكانت فيه مبعثاً للحياة الروحية والأدبية والزراعية والصناعية والوطنية . وجرف تيار المسيحية حكامه من آل شهاب المسلمين وأبى اللمع الدروز وآل حرفوش الشيعيين فتنصروا . وأصبح لبنان بفضل الأمير معقلا للكثلكة فى الشرق الأدنى .

البـــاب الثالث

الزراعة

الزراعة والصناعة ثديا الوطن

عنى الأمير العناية كلها بترقية وإنماء الزراعة وتربية المواشى والدواجن ونشط الصناعات الناتجة عنها ، ونظمها على أتقن الأساليب وأوفرها مورداً . روى الخالدى أن أعداء الأمير لما أرادوا اغراء نصوح باشا على اجتياح بلاده قالوا له « إن بلاده عامرة وأهلها متكاثرة وأنه يحصل منها أموال جمة » .

وهذا ما أطمع بها الأمراء جيرانه فاشتركوا فى الحملة عليه سنة ١٦١٣ ، حتى بلغ رجالها أربعة وثمانين ألفاً . وبعد أن اجتاحت الحملة قسما من البلاد ونهبتها قال الخالدى « ومع ذلك كان الرخاء موجوداً والغلال فى القرايا بلا حد ولا قياس » .

ولنمر الآن سراعا بالموارد الزراعية التى صرف الأمير همه إليها .

كان الحرير موضوع عناية فخر الدين الخاصة ، فأصبح الأول بين المنتوجات اللبنانية وعاش لبنان من مورده أكثر من ثلاثمائة سنة . روى البطريرك الدويهى أن الأمير لما تسلم طرابلس « غرس فى مغراقها أربعة عشر ألف نصبة توت ونصب بستانا أكبر فى أراضى الحيصة » . وتنشيطا لزراعة أشجار التوت خفض الأمير عنها الضرائب إلى النصف فى كسروان وشجع موارنة الشمال على النزوح إلى بقية المقاطعات اللبنانية لاصلاح أراضيها واستثمارها . ولم يمض وقت طويل حتى تمكنوا بكدهم وذكائهم من تحويل جبالها العارية إلى رياض معلقة وأوديتها الوعرة إلى جنائن غناء . وكانوا من أمهر مربى دودة القز فنشروا أساليب تربيتها فى لبنان وفى بعض أنحاء سوريا وقبرص . وفى أوائل القرن التاسع عشر استدعاهم محمد

على باشا فدربوا المصريين على طرق الاستفادة منها. وذكر مونتر الهولندى Münter فى تقرير قدمه إلى الغراندوق فردنان الأول سنة ١٦٠٥ أن « زهاء خمسمائة أسرة وصلت أخيراً إلى جزيرة قبرص من سوريا للاشتغال فى تربية دودة الحرير ».

وقام الأمير بالدعاية فى أوربا للحرير اللبنانى. فكان يهدى منه إلى ملوكها وأمرائها وكرادلتها. فأعجبوا من جماله ومتانته وألوانه الزاهية الذهبية أو الفضية وأخذت مراكبهم تقصد بالعشرات إلى الثغور اللبنانية وتشتريه بأغلى الأثمان وتحمل منه القناطير.

وكان الأمير يقايضهم عليه بوارداتهم من أقمشة وآنية وأسلحة وذخائر ويستخدمه أيضاً فى تسديد الأموال الأميرية والديون التجارية.

ففى السنة ١٦٢٩ ابتاع بالحرير حمولة خمسة مراكب مشحونة أقمشة تسكانية. وفى السنة ١٦٣٢ بعث إلى ليفورنو بخمس وأربعين بالة من الحرير البيروتى الأبيض وأوعز إلى وكيله العلامة ابراهيم الحاقلاني أن يبيعه ويودع ثمنه مصرف جبل الرحمة فى هذه العاصمة باسمه واسم أولاده الثلاثة الصغار. وفى السنة ١٦١٤ قدر سانتى رئيس البعثة التسكانية رسوم الحرير بثلث ايراد الميزانية اللبنانية.

وقال فى التقرير عينه « إن بلاد الأمير غنية بالحرير والزيت والقطن والعسل والشمع والقمح والحبوب ورماد الزجاج والكبريت وكل ما يشتهيه الانسان من أصناف الطعام ».

ويشغل الزيتون حتى اليوم المقام الثانى من الموارد اللبنانية. وقد شجع الأمير شجرته القنوع الوديعة الصبورة الدسمة فجاءت مورداً هاما لرعاياه ولخزنته واتخذ اللبنانى الزيتون رفيقاً لكسرة خبزه إذا فاته البصل. واستعاض بزيته عن السمن فى الطبيخ والتوابل. لأن جباله لا تصلح لغير المعزى. فأصبح الزيتون عاملا للاقتصاد والثروة. وهو من أجود الأصناف فى العالم وألذها طعما، زيتا وحبا.

ناهيك عن صابونه فقد اكتسب الشهرة العالمية بنقائه وجودته. فكان الأمير يصدر منه سنوياً عدة مراكب إلى الاستانة هدايا للسلطان ووزرائه ودعاية له فى السوق. فكان يباع هناك بأغلى الأسعار.

ومن الغرائب التى شاهدها الأب دنديني فى لبنان سنة ١٥٩٦ قافلة محملة رماداً مستخرجا

من حشيشة لبنانية يحرقونها . فكانت المراكب الأوربية تحمل منه كل سنة القناطير المقنطرة لاستعماله فى أنق أنواع الزجاج وأفخر أنواع البلور . وكان للبنادقة المشهورين بهذه الصناعة ولع خاص بهذا الصنف من الرماد بلغ بمصنوعاتهم شهرة عالمية .

وكان القصب فى عهد الصليبيين يعد فى مقدمة المنتوجات اللبنانية وكانت معامل السكر منتشرة فى سواحل لبنان لاسيما فى صور وطرابلس . فيصدر منه إلى الخارج كميات كبيرة . فشجع الأمير منتوجه كما عنى بزراعة القطن الذي كان يتهافت على شرائه تجار الغرب . ومع أن لبنان يشترى الآن ثلثى حاجته من القمح فقد كان الأمير يصدر منه كميات كبيرة تفيض عن مقطوعية البلاد . ذكر الدويهى ورود مائة مركب من أوربا إلى ميناء عكا التابعة عندئذ للبنان لشراء القمح ، ساعدها الأمير على شحنها إنما بأسعار عالية عادت بالأرباح الجيدة على التجار والفلاحين .

ولم تكن زراعة الكتان معروفة فى الشرق ولما شاهدها الأمير فى تسكانا عمل على تنميتها فى لبنان . وفى السنة ١٦٢٩ أصبح الكتان من صادرات اللبنانيين .

وعنى بزراعة الليمون على اصنافه فى السواحل اللبنانية فاصبحت متمنطقة بحزام أخضر يزهو على زرقة البحار . وكان بستان الليمون فى قصره ببيروت مضرب الأمثال . وصفه السائح موندرل الانكليزى فى رحلته وصفاً يثير الاعجاب لتنسيقه ونمائه كما وصف غيره تنسيق غابة الصنوبر شرق بيروت . فقد كلف هذه المهمة مهندسين بارعين طلبهم من صديقه الغراندوق .

وشملت عنايته الخضار أيضا . وقد استجلب من تسكانا بذور أجود الأصناف وأغربها لاسيما الخس الافرنجى والهندباء والقرنبيط والبازلا والبندورة .

وكان مولعاً بدرس النباتات حتى أنه كلف رساما فرنسويا فرسم له ألفا وخمسمائة صنف بالألوان الطبيعية ، فكافأه على عمله مكافأة حسنة .

واهتم الاهتمام كله بتحسين نسل الأبقار الصالحة للفلاحة والجوادة بالألبان فاستقدم من تسكانا أزواجا من أجود أنواعها .

فكتب ماشنجى فى تقرير السنة ١٦١٤ إن موارده من غير الرسوم والضرائب ناتجة عن

استثمار مساحة كبيرة من الأراضى الزراعية لحسابه الخاص وتربية كمية كبيرة وافرة من الأبقار بالشركة مع الفلاحين . ورغبة فى تلقين الفلاح اللبنانى أصول الزراعة وأقرب الوسائل لاستثمار أراضيه وتربية المواشى والدواجن ، سأل الغراندوق أن يبعث إليه ببضع أسر من فلاحي تسكانا معاهداً اياه على رعايتهم وتقديم نفقات سفرهم وتعيين رواتب مغرية لهم . وسأله أن تستجلب كل أسرة أحدث أدوات الزراعة والفلاحة الدارجة فى تسكانا وأجود أصناف الأبقار والدواجن .

واشتهر أيضاً بعنايته فى تحسين نسل الخيل . وكان يقتنى من أصدقائه مشايخ القبائل الأصائل الشهيرة ويهدى من نسلها إلى الملوك والأمراء . وقد بنى لها فى قصره ببيروت اصطبلات فخمة وصفها السياح وصفاً يثير الاعجاب . وقد شاهدناها بنفسنا فى السنة ١٩٣٣ غرب السراي الصغير حين كانت تعمل فى هدمها يد الجهل لتستعيض منها بأعمدة من الأسمنت المسلح .

وكان مولعاً باقتناء الكلاب. فسأل الفراندوق أن يبعث إليه بزوجين من أشهر الأصناف لاستخدامها فى الصيد والحراسة أو للتسلية فى المنازل .

هذه العناية جعلت من لبنان على وعورته جنة عدن فبلغت موارد مزروعاته أضعافا مضاعفة عما كانت عليه قبلا وتمتع سكانه بالرخاء والبحبوحة وهناء العيش .

البـــاب الرابع

التجارة

ظهرت مواهب فخرالدين ظهوراً لامعاً فى السياسة التى اتبعها لتنشيط التجارة فى مملكته . فقد نشر الأمن برا وبحرا ، وخولهم من التسهيلات والميزات والحصانات ما استطاع إليه سبيلا .وإذا بصيدا وصور وبيروت وجبيل وطرابلس، قواعدفنيقية الساحلية وعواصم العالم القديم التجارية تستفيق من السبات ، الذى أقعدها منذ هجرها الصليبيون فى القرن الثالث عشر فتشاهد بارتياح مراكب البندقية وبيزا وجنوا ومرسيليا الأوربية ، وتونس والجزائر

ومراكش ومصر الافريقيـة ، والبحر الأسود والارخبيل التركية ، عائدة إليها ، مرفرفة بأجنحتها البيضاء على سطح بحارها الزرقاء الزاهية ، مثقلة بالأقمشة والأدوات والمعادن والنقود الأجنبية ، حاملة منها المنتوجات الوطنية .

لم يصب جبل لبنان ، المنتصب أفقيا فوق البحر المتوسط ، من الأراضى الزراعية سوى شقة ضيقة تكمشت بين قدميه و « فقش الموج » . بيد أن الخالق حبا ساحله بسلسلة أنيقة الحلقات من خلجان ظريفة هادئة ؛ استخدمها الفينقيون ملاجيء أمينة للمراكب من العواصف الهوجاء . وحبا أهله ذكاء ونشاطاً وشجاعة استعاضوا بهما بما حرمتهم الطبيعة . فكانوا أول من ركب خشبة شقوا بها غير هيابين عباب البحر المعربد المتلاطم . جابوا على ظهرها النحيل البحر الأبيض كأنه بركة . وانشأوا لهم فى السواحل البعيدة عن بلادهم مستودعات ما عتم أن تحولت إلى مستعمرات زاهرة ، استقر فيها تجارهم وعملاؤهم . مثل قرطاجنة فى أفريقيا ، وقادس فى إسبانيا ، ومسينا فى ايطاليا ، ومرسيليا فى فرنسا . واقتحموا مضيق الدردنيل شمالا إلى البحر الأسود وجالوا فى شواطئه . وأنشأوا لهم فيها الخانات والمخازن . واجتازوا مضيق جبل طارق وداروا حول القارة الافريقية جنوبا وبلغوا غربا حتى أميريكا الجنوبية . وحذقوا صناعات الفخار والمعادن والأقمشة الفاخرة كالارجوان . واستنبطوا حروف الكتابة وأرقام الحساب واستخدموها لأعمالهم ونشروها فى الأقطار القديمة . فأصبحت شقة الساحل اللبناني على ضيقها محور الحركة التجارية والثقافية فى العالم القديم .

ولم تكتف الطبيعة أن تحجز بينهم وما وراء البحار من الأقاليم ، بل وقفت قمم لبنان الشاهقة ، وغاباته الكثيفة ووعوره وثلوجه سداً عاليا بينهم وبين سهول البقاع وسوريا وما إليها . على أن همتهم كانت أرفع من ناطحات السحاب وأصلب من الطبيعة . فشقوا إليها الطرق ، مكتسحين الغابات ممهدين الوعور ، دائسين رؤوسها الشامخة وثلوجها . فاتصلوا ببقية المعمور .

بيد أن فخر الدين لما تولى زمام لبنان وجد ثغوره راقدة منذ ثلاث قرون رقاداً أقرب إلى الموت منه الى الحياة ، وقد بقى لطرابلس وحدها بقية من الحياة بفضل التجار الأوربيين خاصة البنادقة ، الذين اتخذوها ميناء لحلب ، قاعدة التجارة فى آسيا . فانتقل قناصلهم من دمشق إلى الفيحاء فى العام ١٥٤٥ . وبعد ثلاث سنين استقروا فى حلب نفسها وأبقوا على

طرابلس وكلاء لتسلم البضائع ونقلها . وما زالوا على ذلك حتى أوائل القرن السابع عشر ، حين اضطرهم يوسف باشا سيفا بجشعه وعسفه إلى استبدالها بخليج الاسكندرونة . فقد صادر مرة فى غليونين فرنسويين ثمانين ألف غرش ، فضلا عن البضائع التى كانت تحملها . وقتل تجارها وباع بحارتها كأنهم أسرى . على أن التجار الأوربيين الذين نزحوا من طرابلس إلى الشهباء أمسوا فيها «كالمستجير من الرمضاء بالنار» . لأن ولاتها لم يقلوا جشعاً وظلما وقسوة عن سيفا باشا .

فأدرك فخر الدين أن الفرصة موآتية لاجتذاب التجار الحائرين الخائفين إلى ثغوره ، فيستفيد من خبرتهم ورؤوس أموالهم وعملائهم ويروج محصولات بلاده فرسم لنفسه خطة رشيدة سار عليها حياته كلها ، وهي حماية التجار بحراً من القرصان وبراً من اللصوص ، وتسهيل معاملاتهم وتنقلاتهم ، وتخويلهم ما أمكنه من الرعاية والميزات .

فأى مركب قصد إلى ثغوره حق له عليه الحماية . لم يكن لديه أسطول يحميه ، إنما لم يعدم وسيلة للوصول إلى معاقبة من يتعرض له . فكان يحرم القرصان الاوربيين ميزة اللجوء إلى موانئه هرباً من الأسطول العثماني ويحرمهم أيضاً حق التموين منها والتعامل معها . بل كان يلاحقهم وينزل بهم أشد العقاب إذا وقعوا بين يديه . فان لم تطلهم يده فى بلاده طالتهم فى بلادهم . فقد كان يشكوهم إلى أسيادهم ويتشدد فى طلب معاقبتهم . وكان عواهل الغرب مضطرين إلى استجابته إن لم يكن بداعى الصداقة فلحماية مصالح بقية مراكبهم ورعاياهم فى بلاده .

فى السنة ١٥٩٤ لما صارت إليه صيدا استقر فيها واتخذها عاصمة لمملكته ومنفذاً لمحصولاتها وقاعدة لسياسته التجارية . وجاهد فى سبيل ترقيتها حتى أصبحت من أكبر الموانىء التجارية فى البحر المتوسط .

وبعد عودته من ايطاليا تركها لولده الأمير على وسكن بيروت حيث نجده مقيما فى أوائل السنة ١٦١٩ . وعكف على عمارها وانهاض تجارتها . وفى السنة ١٦٢٢ شيد فيها قصره الشهير وبعد عشر سنين أقام فى احدى زواياه برج الكشاف الذى اتخذت ساحة البرج اسمها الحالى منه وجعل ارتفاعه ستين قدما ليكشف منه على السواحل والبحار ويراقب حركات المراكب والقرصان . وأوعز إلى عماله أن يعنوا بحماية المراكب والتجار حتى أن قلعته فى

صيدا رمت مرة على إحدى سفن القرصان الفرنسيين سبعين قنبلة من المدافع لتردهم عن السفن الاوربية فى مينائها .

ولم يكن يسمح حتى لأصدقائه أن يعبثوا بسواحله . ومع أنه كان صديقاً حميما لفرسان مالطة ، الذين استقبلوه وهو عائد من بالرمو استقبال الملوك ، فقد صادر قاربين من قرصانهم كانا يأسران التجار المسلمين . استخدمها بعدئذ فى نقل جنوده وذخائره على السواحل اللبنانية . وشهد شيفرانو قنصل البندقية فى حلب أن « الأمير دأبه حماية التجار من تعدى القرصان وترغيبهم فى الانتقال إلى ثغوره » .

هذا فى البحر ، أما فى البر فكان إذا وطىء التاجر أرضه شعر حالا بحمايته وعطفه . فقد نثر فى طول مملكته وعرضها القلاع والحصون والمغافر والخانات المحصنة المجهزة بالجنود والماء والزاد لنزول القوافل والمسافرين . فضلا عن الخانات التى أقامها فى الثغور لنزول التجار وتخزين بضائعهم ، كمخازن الفرنسويين الشهيرة فى صيدا .

ولما علم أن اللصوص اتخذوا مكانا قريبا من صفد مربطاً لهم شيد فى المكان عينه خاناً محصناً اقام فيه الحرس من الجنود . وقصد إليه بنفسه ليتأكد من انجاز أوامره فوجد السور لم ينجز بعد . فضرب خيمته بجانبه وظل شهراً كاملا يحث العمال على اتمامه والحمى تأكل أضلاعه . ولم يذق طعم الراحة إلا بعد أن أكمله .

هذا فضلا عن الطرق التى فتحها والمعابر والجسور التى مدها تسهيلا للمواصلات . وقد اعتمد على المهندسين التسكانيين لانجاز هذه الأعمال طبقا للأصول الهندسية .

وكان شديد الوطأة على المتاجرين بالنقود المزيفة . فيصادرها منهم ويعاقبهم أشد العقاب ويشكوهم إلى رؤساء دولهم . ولما لم يكن يسك النقود خوفاً من السلطان ، كلف صديقه غراندوق تسكانا ضرب نقود صحيحة من أرباع القرش لقيت رواجاً كبيرا فى أسواق الشرق . وتسهيلا للمعاملات وترويجا لمنتوجات مملكته . كان يذهب أحيانا إلى اقراض التجار الأجانب نقوداً لاكمال شحن مراكبهم .

فتكللت هذه السياسة الرشيدة بنجاح باهر ، عاد عليه وعلى لبنان برخاء فريد فى تاريخه . فكان تجار البلدان المجاورة يتركون مراكز أعمالهم ويقصدون إلى ثغور لبنان ، فتتغذى

خزنته برسوم بضائعهم ، ويحصل سكانه على حاجتهم من هذه الواردات بأسعار متهاودة . وقد يعيدون تصديرها إلى جيرانهم فى الشرق الأدنى ، فيجنون منها الأرباح الطائلة .

وقد شهد المعاصرون من رحالة وقناصل وتجار للأمير بحكمته وسياسته التجارية . فى تقرير رفعه سنة ١٦٢٤ شفرانو Cīvrano قنصل البندقية فى حلب إلى رئيس جمهوريتها كتب ما يلى « أتوقع فى القريب العاجل تقهقر رعاياكم فى هذه المدينة لجشع واليها فى ابتزاز أموالهم مما حمل أغلبهم على تصفية أشغالهم والانتقال إلى صيدا ، حيث يلقون من الأمير فخر الدين حسن المعاملة والتشجيع . ولما كان دأب هذا الأمير حماية المراكب أيضاً من القرصان فقد راجت التجارة فى بلاده رواجا كبيراً ، وعادت عليه بالأرباح الطائلة . وينتظر أن تزداد حركتها يوما عن يوم فتعطل على تجارة حلب تعطيلا محسوساً . »

ولما شاهد غراندوق تسكانا أن تجارة بلاده مع لبنان تنمو نمواً مطردا بفضل مساعدة الأمير لوكلائه ، عين فى صيدا قنصلا دائما يدعى فرنسيس دافرتسانو Da Verrazzano ليسهر على مصالحه ومصالح رعاياه ويسعى فى تنميتها .

وقد ذكر هذا القنصل فى تقاريره بين صادرات صيدا القمح والارز وأصناف الحرير الاصفر والابيض وبعض الأقمشة المستخرجة منه لا سيما الدمقس . وذكر أيضا الصابون والصوف والكتان والقطن الخام والمغزولات ، فضلا عن الصمغ العربي والزاج . وعد بين واردات تسكانا الاقمشة على اختلاف أنواعها وفى مقدمتها الاجواخ والمخمل والقرمز والحرائر على اختلاف قياساتها وألوانها وأشكالها . والورق من خشن وصقيل ، والاقداح والصحون والدوارق وشتى المصنوعات البلورية والزجاجية خاصة عيون النوافذ المستديرة . ثم قضبان الفولاذ والسلاسل والاشرطة والمسامير والأمواس والسكاكين وأدوات المطبخ والشماعدين والقبعات وأنواع العطارة والاجراس الصغيرة .

فضمنت هـــذه السياسة لميناء صيدا رخاء قرنين وانوف حتى أن ميزانية التجارة الفرنسوية فى هذا الثغر اللبناني تجاوزت سنة ١٦٧٠ مليونى ليرة ذهبية

الباب الخامس

سياسته المالية

إن جهود الأمير فى توطيد دعائم العـــدل ونشر لواء الامن ، وتنشيط التجارة والصناعة ، اغدقت الخيرات على شعبه والاموال على خزينته . وضمانا لهذا الرخاء وضع نظاما دقيقاً لقيـد الاموال الاميرية وجبايتها وتوزيعها على المنافع العامة . وكان يتشدد فى تحصيلها .

أكد لنا الاب روجيه طبيبه الخاص أن « الامير كان مطلعا على جميع شؤون البـلاد وأشغالها الهامة ، وعلى أحوال رعاياه المالية . فكان يعرف بدقة أسماءهم وألقابهم وثروتهم . وكان لديه سجل يحوى أسماء جميع الرجال القادرين على حمل السلاح وآخر يقيد فيه الاشجار المثمرة التى تحصل الاموال الاميرية بنسبتها ، وثالث يدون فيه عدد الابقار والمعزى التى تلحقها الضريبة » .

واعلمنا الخالدى أنه كان « يباشر تدبير مملكته بنفسه ويضبط أموالها ويتقن أمورها بقوة حدسه . وكان قوى العزم شديد الحزم حسن التربية » .

هذا التدبير يظهر لنا الآن عاديا ، ساريا فى كل دولة منظمة . بيد أنه فى عهد الامير ، لاسيما فى الدولة العثمانية ، كان النظام مستحـدثاً ، غريبا . ولنمر الآن بأبواب ميزانيته واحدا واحدا .

١ — الدخـل — كانت الاموال المحصلة من رسوم الجزية أهم الابواب التى تدر المال على خزينته فضلا عن رسوم المواشى والاشجار والجمارك .

حرم الشرع الاسلامى على النصارى واليهود الخدمة فى الجندية . أى شرف الدفاع عن الوطن ، وعدهم « مادة المسلمين » . ففرض عليهم جزية سنوية يؤديها كل رجل يافع منهم .

وقد أفادنا الرحالة سانديس ، الذى مر بلبنان سنة ١٦١٠ ، أن الامير كان يتقاضى سنوياً من كل مسيحي ويهودي ريالين فى السنة .

وأكبر الظن أن الامير كان يعفى المسيحيين المجندين فى جيشه من الجزية لانها فرضت عليهم بدلا من الخدمة العسكرية .

وجاء فى تقرير سانتى المحرر سنة ١٦٢٤ « يتقاضى الامير رسما عن كل رأس من البقــر والجواميس والجمال والمعزى التى يسلمها إلى الفلاحين ، على أن تكون جلودها له . وإن نفقت فعليهم . وقال سانديس « يجبي الامير من كل شيء خمسه » .

ولما كانت ضريبة الارض تجبي على الاشجار المنتجة جاء تنشيط الامير لنصب التوت والزيتون موردا وفيرا للبلاد وللخزينة العامة . قال سانتى فى تقريره المذكور « الاراضى كلها ملك الامير يسلمها إلى الفلاحين ليستثمروها على أن يؤدوا له ثلاثة ريالات عن كل مئة نصبة توت ، ومن الحرير والقطن ثلثه ، ويقدر دخله من التوت والحرير بثمانين ألف غرش ومن الخمر والزيت بخمسين ألفاً » .

وعلمنا من الاب روجيه أن « نصارى لبنان الشمالى كانوا يؤدون إلى والي طرابلس اثنى عشر غرشا فى السنة رسم جزية الرأس عن كل منهم ، ليجوز لهم العيش حسب شريعتهم حتى إذا بلغ الحدث الرابعة عشرة أدى فرنكين وزاد كل سنة فرنكا إلى أن تبلغ جزية رأسه ستة فرنكات . ولقاء هذا كل مسلم يمر بجبل لبنان كان مفروضا عليه أن يؤدي لحاكمه نصف فرنك عن نفسه ونصفاً آخر عن حمولة كل بغل أو جمل » . ثم زاد يوسف سيفا الضرائب زيادة فاحشة حتى ضج الرعايا من الظلم .

وفى السنة ١٦٢٠ ، لما نزع الامير فخر الدين مقاطعة جبة بشرى من يد يوسف سيفا ولى عليها الشيخ أبا صافى الخازن وخفف عن أهلها الاثقال التى كانوا يرزحون تحتها .

وهاك مادونه فى هذا الصدد البطريرك اسطفان الدويهى فى نبذته عن مقدمى جبة بشرى بعد استيلاء الامير عليها « وكثر الامان والعدل فى الجبة وفى كل ايالة طرابلس . لان الامير فخر الدين حرر على رأس الفلاح اثنى عشر قرش ونصف . ومثلها على الفدان . وأما علىماية التوت جعل فى معاملة طرابلس قرشين لاغير وفى كسروان قرش ونصف الربع

والجالية على رأس الغريب قرشين ونصف الربع . ومثلها على ماية المعزة وعلى حجر الطاحون وعلى دولاب الحلاله . وان الديورة تعطي نصف خراج لا غير . وكان مال الجبة أربعة آلاف » . وأفادنا سانتى عن رسوم الموانىء اللبنانية ان كل مركب يرسو فيها كان يؤدى رسما قدره ١٥ غرشا وكل عشر لبرات من الحرير والقطن تدفع ربع سكوت . أما البضائع التى تمر بهذه الموانىء فى طريقها إلى دمشق أو منها إلى المدن والموانىء فتدفع رسوما باهظة . وأعلمنا سانديس أن « الامير كان يتقاضى من التجار ثلاثة فى المئة » .

وقدر سانتى دخل الأمير سنة ١٦١٤ بزهاء ثلاثمائة ألف قرش . وقدرها دهاى Deshayes السفير الفرنسوى فى السنة ١٦٢٤ بتسعمائة ألف فرنك ذهب وأوصلها الأب روجيه فى السنة ١٦٣٢ إلى مليوني فرنك ذهب . وهذا شاهد على نجاح سياسة الأمير المالية نجاحا فريدا فى تاريخ لبنان .

كانت أهم أبواب الخرج الخراج والجيش والأشغال العامة والادارة .

١ - الخراج - كانت أراضى الولايات العثمانية معدودة كلها ملكا للسلطان ولم يكن حكامها من ولاة وسناجق ومقدمين سوى ضامنى أموالها . فكانت سلسلة الضمان تبدأ بالفلاح الذى يستثمر الأرض بعرق جبينه ، وتنتهى بالسلطان مالكها الأوحد .

أما فى لبنان فامراؤه كانوا يتوارثون ضمانه ، ويستقلون بادارته والنفقة على جيشه وصيانة عباده والقيام بالاعمال العمرانية .

وكان الامير يسدد الأموال الأميرية فى مواعيدها . وأحيانا يسبقها ليبعد عن لبنان عين الباب العالى ورجل رجاله وجيشه ، ويبعد عن نفسه الشبهات الحائمة حول طموحه إلى الاستقلال وعلاقاته بالدول الأوربية المعادية للسلطان .

أما مقدار المال الذى كان يقدمه سنويا إلى السلطان فيتراوح بين ستين ألف سكوت وثلثمائة وأربعين ألفاً تبعاً لاتساع مملكته المطرد . وقد « بلغت مملكته فى السنة ١٦٣٢ سبعة أثمان ما كانت عليه فى السنة ١٦١٣ » . كما شهد القنصل دافرتسانو .

٢ - الجيش - قدر ماشنجى جيش الامير سنة ١٦١٤ بعشرين ألفاً فى وقت الحرب . أما فى زمان السلم فافادنا سانتى فى تقرير السنة عينها أنه يبقى تحت السلاح

والبسائس . وانه كان يقدم الطعام لحراس القلاع ورواتب باهظة لقوادها . فضلا عما كان يوزعه على المحاربين عقيب انتصاراته العديدة .

ولما كانت حروبه متواصلة قرر أن يلزم كل لبناني مهما كان مذهبه بحمل السلاح والدفاع عن وطنه . حتى إذا نفخ النفير جمع كل أمير أو شيخ رجاله تحت راية خاصة ، وقام بالمهمة التي يعهد إليه الأمير بها . وبعد انتهاء الحرب يعود المحاربون كل إلى بيته وعمله .

وهكذا اشترك المسيحيون فى الجندية التي كانت محرمة عليهم فى بقية الولايات العثمانية . وقد عين أبا نادر الخازن قائدا للفرسان ، ثم قائدا عاما للجيش اللبناني . وما زال هذا النظام قائما فى لبنان حتى دستور السنة ١٨٦١ .

وكان الأمير يستعين عند الحاجة بحلفائه من شيوخ القبائل العربية الضاربة حول لبنان وكثيراً ما كان يستخدم الجنود المأجورة .

أما فى الولايات العثمانية فكانت نفقة الجيش تجمع من أهالى البلاد التى ينزل فيها وهو ما كانوا يسمونه بالقشلاق . فتوزع نفقاته على البلاد بنسبة ثروة كل منها .

٣ ـ المصالح العامة كان الامير ينفق من خزينته على الادارة والاشغال العمرانية من أقنية الرى وطرق وجسور وسدود وقلاع وحصون وأسوار وأبراج وموانىء وحراسة البحار . حتى على الأسواق التى تقام لتبادل السلع والمحصولات وعلى الخانات التى ينزل فيها التجار والقوافل كما رأيت . فضلا عن القصور والجنائن التى كان ينشئها لسكنه ولاقامة حكام دولته .

أما فى بقية الولايات العثمانية فكانت النفقات على هذه الأشغال تفرض على الشعب فرضا على هوى الحكام ، الذين كانوا يتخذونها فرصة لابتزاز أمواله .

الباب السادس

الجندية

إذا كان المال عصب الحرب فالوطنية عصب النصر والاستقلال . من مفاخر فخر الدين الخالدة بثه فى صدور رعاياه على اختلاف مذاهبهم ومللهم روح الوطنية اللبنانية الحقة .

منذ الفتح الاسلامى أمسى المسيحي فى الشرق غريبا عن وطنه . والوطن غريبا عنه . لأنه حرم الدفاع عن هذا الوطن . ولما نادى فخر الدين فى رعاياه بالحرية الدينية والمساواة المدنية والاخاء ، صالح المسيحيين مع الوطن وصالح الوطن معهم . فانفتحت عين الشرق ، بعد أن مزقه التعصب الدينى ، على مشهد فريد . المسيحى يحارب بجانب الدرزى والشيعى والسنى ، مازجا دماءه بدمائهم دفاعا عن الوطن ، الذى أصبح للجميع .

هذا التضامن ، وقل التآخى ، كان سر القوة فى الجيش الذى نظمه فخر الدين فوحد مقاطعات لبنان المتفرقة وجعلها دولة واحدة ، وضمن استقلاله بحدوده الطبيعية مدة ثلاثة قرون ، لم تطأه رجل جيش غريب ، وان وطئته حينا لم تثبت طويلا ، بل عادت عنه بعد قليل . كالصخرة المنتصبة على شاطئه ، تهاجمها الأمواج وتلطمها وتزحف أحيانا حتى أعلاها بيد أنها لا تلبث أن تنحسر عنها وتتكسر على قدميها ، فتتلاشى .

كان جيش الأمير ثلاث فئات . وطنى ومأجور ومساعد .

١ – الجيش الوطنى

كان مؤلفاً من اللبنانيين ، خاصة من عنصريهم الكبيرين المارونى والدرزى . ذكر الدويهى والخالدى بين صفوف هذا الجيش فرقتين من شيعيي الجنوب والبقاع . وبعد السنة ١٦٢٧ أي بعد أن استولى الأمير على طرابلس والكورة وعكار نرى فى جانبه فرقة من الملكيين . وكانت هذه الفرق تحارب تحت الوية امرائها ومقدميها ومشايخها ، ويخضع قوادها لأوامر القيادة العليا التى كان يتولاها الأمير بنفسه . وفى آخر عهده عين الأمير ابا نادر الخازن المارونى قائدا عاما على جيشه

قلنا أن الأمير كان يستعين بجيش مأجور وبآخر مساعد، انما اللبنانيون كانوا نواة جيشه وروحه الحية. لحمتهم الوطنية وهدفهم الأعلى توحيد لبنان وتحريره من سيطرة الأتراك وجعله أمنع من أن تناله يد أجنبية مها طالت وصالت. فى السنتين ١٦١٣ و١٦١٤ فى أثناء غيابه صمد هذا الجيش أمام الحملة الكبيرة التى شنها على لبنان حافظ أحمد باشا وإلى دمشق، مع أنها كانت مؤلفة من أربعة وثمانين ألفاً. وهزم فى السنة ١٦١٦ الجحافل التى جمعها يوسف باشا سيفا. فحفظ هذا الجيش الوطنى للبنان كيانه وثروته، ولأميره الغائب عرشه.

أخبرنا ماجرى الذي زار لبنان سنة ١٦٢٤ «أن عدد الدروز تضاءل بعد أن مكر بهم ابراهيم باشا سنة ١٥٨٣ وقتل منهم زهاء ستين ألفاً. فلم يعد يسع الأمير أن يجندمنهم أكثر من اثنى عشر ألفاً. بيد أن عشرين ألفاً من الموارنة يحاربون الآن تحت لوائه. وقد وسع الأمير مملكته كثيراً بمؤازرتهم». وأيد الأمير نفسه هذا الكلام فى كتاب وجهه سنة ١٦٢٤ عينها إلى البابا أوربانس الثامن، بشره فيه باستيلائه على كل البلدان المجاورة له حتى انطاكية مساحة مئات من الأميال، بجيش مؤلف معظمه من النصارى.

وأفادنا البطريرك الدويهي فى تاريخه أن أغلب عسكر الأمير كانوا نصارى وكواخيه وخدامه موارنة.

وكانت الإلفة بين الموارنة والدروز محكمة الأواصر. فكتب الأب فيتالي سنة ١٦٤٣ فى تقريره «أن الدروز شديدو الميل إلى الموارنة. ويكفى ان يشعر الدرزى بمرور مارونى بقربه ليدعوه إليه ويضيفه كاعز أقربائه».

٢ — الجيش المأجور: ضنا بحياة مواطنيه وعملهم فى الزراعة والصناعة، كان الأمير كغيره من الأمراء المجاورين يستأجر جنوداً من طائفة السكمان العاصين على الدولة فيبقيهم تحت السلاح درءاً للطوارىء وحفظاً للامن والحدود والقلاع.

هذه الطائفة مع ماكانت عليه من الجشع والفظاظة والتقلب أدت له خدمات كبيرة لشدة مراسها ويأسها من عفو السلطان. بيد أن اخلاصها كان متوقفاً على اخلاص قوادها فقد ينتهزون فرصة الحاجة الماسة إليهم ليطالبوا بأجور فاحشة.

وقد توصل احمد باشا حافظ فى السنة ١٦١٤ إلى أن يتسلم من السكمان قلاع الأمير المنيعة لقاء مبلغ من الدراهم. وما أن تركوها حتى دكها إلى الأرض.

٣ — الجيش المساعد وكان الامير فى حملاته الكبيرة يستنجد بحلفائه كآل شهاب انسبائه حكام وادي التيم ، وآل حرفوش أصهاره حكام البقاع ، وقبائل البدو الضاربين فى عجلون وحوران .

بيد أن البدو على قول سانتى « كانوا يجنحون فى الحروب إلى الغزو والنهب والفتك » فلم يكن الأمير يستدعيهم إلا فى حملات خارج حدود لبنان حرصاً على رعاياه » . وأفادنا ماريتى أنه فى السنة ١٦٣٤ فضل ضياع مملكته على السماح لهؤلاء بأن يدوسوا أرض لبنان .

وكان جميع حلفائه مدينين له بمراكزهم وبعضهم بحياته . وكثيرا ماضحى فى سبيلهم راحته وماله وجازف أحيانا بملكه ورأسه .

٤ — عدد الجيش كان عدد جيشه يختلف أو بالاحرى يزداد حسب توسعه فى الملك . لما أقلع إلى ايطاليا فى السنة ١٦١٣ كان جيشه يقدر بعشرين ألفاً .

وفى السنة ١٦١١ تعهد عنه المطران جرجس مارون سفيره لدى البابا بتجهيز سبعين ألف محارب . بينهم ثمانية آلاف حشدهم الشدياق يوسف خاطر الحصرونى . وروى القنصل دفرتسانو أنه فى السنة ١٦٣٢ جهز ثلاثين ألفاً على الامير طرابيه سنجق حيفا . وقدر المحبي جيشه فى آخر حياته بمئة ألف .

٥ — نظام الجيش كتب سانتى فى التقرير الذى رفعه إلى الغراندوق سنة ١٦١٤ « ان قوة جيش الأمير غير راجعة إلى وفرة جنوده ودربتهم فى القتال بل إلى بسالة الامير والخبرة التى اكتسبها فى مواقعه العديدة ، فضلا عن كثرة أتباعه ، وشدة بأس شعبه وجبانة جيرانه » .

بيد أن سانتى انتقد قلة النظام فى جيشه. فقال « الرجالة يمشون وراء الراية بلا ترتيب، لا يحملون سوى البندقية ذات القداحة . أما خيولهم العربية الغالية الثمن فهى صبورة على التعب وسرعتها مدهشة . ومع أن طعامها الحشيش وحفنة من الشعير ، فهى تعمل النهار كله بلا كلل . يسيرون جماعات بدون بوق ويحاربون أفراداً بين كر وفر والامر كله متوقف على سرعة الحصان وخفة حركاته . وهم إذا عسكروا لايحفرون خنادق ولا ينشرون خيما

تقيهم الحر والبرد والامطار . والمدافع عندهم نادرة يجهلون استعمالها . ويحمل كل جندي زاد ثلاثة أم أربعة أيام . وعليه أن يجهز نفسه بالسلاح من راتبه . ليس عندهم معامل لصنع السلاح أو البارود بل يستوردونها من الخارج » .

هذا الحكم مع أنه غير مرض يعود على الامير بالفخر . فقد كان يتغلب بهؤلاء الجنود على جيوش تفوقهم عددا . ومما لا جـدال فيه أن أميرنا ظل بونابرت الشرق طيلة الخمس والاربعين سنة التى تولى فيها الحكم . ومع كونه لم يتخرج من مدرسة حربية كان يعرف كيف يصف رجاله فى الميدان ويعين لهم النقط الملائمة وينجد المراكز المهددة ويضرب العدو الضربة القاضية فى الوقت المناسب . فينتزع منه ما أحرزه فى بادىء الامر من التفوق بعدده . وكثيرا ما كان يخلص بيقظته وجرأته جيشه من ورطات صعبة ومآزق خطرة ويحولها فجأة إلى نصر فى جانبه .

وان شئت التثبت من ذلك فما عليك إلا أن تراجع فى الخالدى وصف المعارك التى خاضها ، حيث كان مجرد حضوره ضامنا كافياً لفوز ذويه .

٦ — التجهيز

أما بقية العيوب التى أشار سانتى إليها فغير ناتجة عن اهمال الأمير أوجهله بل عن تحريم الدولة التركية عليه إنشاء المعامل والمدارس الحربية . فهو لم يأل جهدا عن تجهيز جيشه وقلاعه بأحدث الأسلحة واستجلاب الخبراء الأوربيين لتنظيمه وتدريبه . وكان يبتاع بأغلى الأسعار الأسرى الاوربيين الخبيرين بفنون الحرب وأسلحته ويغريهم بالرواتب الضخمة او بالهدايا ويعاملهم أحسن معاملة وكان يلح على أمراء الغرب ليبعثوا إليه بالمهندسين والقواد والخبراء الماهرين بصنع البارود وصب المدافع وتركيبها واستخدامها . وذهب إلى أن استجلب من تسكانا فرانا لصنع البقسماط للجنود واستخدم المهندسين لترميم القلاع وتشييد غيرها وتنظيم الموانىء وتحصينها .

وقال سانتى أيضا عنه « أنه لا يملك قوة بحرية بتاتاً لأن شعبه منصرف عن الملاحة . وللأمير عذره فى ذلك . فقد كان يستحيل عليه انشاء أسطول حربى وتجهيزه تحت أنظار الأتراك لمقاومة عمارتهم التى كانت تلقي الرعب فى صدور الأمراء والملوك الأوربيين أنفسهم . إنما سعى طيلة حياته إلى احلال احدى الدول الأوربية فى جزيرة قبرس لتحمى بأسطولها

الشواطىء اللبنانية إلى أن يتسنى له تجهيز عمارة خاصة . ولما كان فى تسكانا نازلا ضيفاً على الغراندوق صرح له « انه لا ينقصه للدفاع عن مملكته سوى قوات بحرية . أما فى ألبر فلا يخشى الأتراك ولو جهزوا عليه مئة ألف مقاتل » .

الباب السابع

الحصون

كتب المحبي فى ترجمة الامير فخر الدين يقول « تدرج بعد موت أبيه وعلا شأنه إلى أن جمع جمعاً كبيراً من السكبان واستولى على بلاد كثيرة منها صيدا وصفد وما فى تلك الدائرة من اقطاع كالشقيف وكسروان والمتن والغرب . وعاد من بلاد الفرنج فى شوال سنة ١٠٢٧ وزاد بعد ذلك فى الطغيان والاستيلاء على البلاد . وبلغت اتباعه نحو مائة ألف من الدروز والسكبان . واستولى على عجلون والجولان وحوران وتدمر و الحصن والمرقب وسلميه . وبالجملة فانه سرى حكمه من بلاد صفد الى انطاكية . وبلغت شهرته الآفاق حتى قصدته الشعراء من كل ناحية ومدحوه . وكان قد خرج عن طاعة السلطنة وجاوز الحد فى الطغيان وأخذ كثيراً من القلاع فى ضواحي دمشق وتصرف فى ثلاثين حصنا . وجمع من طائفة السكبان جمعاً عظيما . وبالجملة فقد بلغ مبلغا لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة » .

وجاء فى تقرير رفعه إلى الغراندوق القنصل دفرتسانو فى السنة ١٦٢٩ بعد وصوله إلى لبنان « تصل مملكة الامير إلى مسافة نصف يوم من حلب ويومين من بغداد . فعل ذلك للاستيلاء على قلعة تدمر . وتمتد حدود مملكته من الجهة الاخرى إلى مسافة نصف يوم من دمشق . أما شواطئها فتنبسط من حيفا حتى أدنه . فتكون قد زادت سبعة أثمان عما كانت عليه فى السنة ١٦١٣ ، التى قصد فيها إلى تسكانا . »

وقد جهز الامير هذه المملكة الواسعة ، بالرغم من مراقبة الباب العالى ، بشبكة متينة من القلاع والحصون والابراج والاسوار . بنى بعضها ورمم البعض الآخر لرد الغارات عن

البلاد وتوطيد الامن فيها وحماية التجارة . وفى السنة ١٦٢٤ حالما تلقى من الاستانة لقب « سلطان البر » الذى خوله السلطة الشرعية على بلاد عربستان ، قصد على رأس جيش لتفقد مملكته ، فمر بحمص وحماه ، واخترق صحراء سوريا إلى تدمر . وبلغ دجلة والفرات وعاد إلى حلب فانطاكية فدمشق فحوران ومنها إلى فلسطين ، مرمماً القلاع ومجهزها برجاله ، محصلا الاموال الاميرية من مدنها وعشائرها ، منظما أحوالها وقاطعاً دابر الشقاوة واللصوصية فيها . حتى أن والى حلب ، حاكم المقاطعات الشمالية من سوريا ، هرول لملاقاته وتقديم الطاعة له والذخيرة لجيشه . واستصرخه الدمشقيون لشحة القمح فبعث إليهم من حوران بألف جمل محملة منها . ونادى من أعلى المآذن بتخفيض الاسعار وهدد الطامعين والمخالفين ، فأطاعوه وشكروه

وهاك جدولا مختصراً مرتباً على حروف الهجاء بأسماء القلاع والحصون والابراج التى كان يملكها الامير . وقد بلغت خمساً وأربعين :

أبو الحسن : قلعة صليبية فوق الليطاني . انطاكية : بنى فيها قلعة تشرف على المدينة . بانياس : أو صبيبه فوق مدينة بانياس الحالية . البحصاص برج قبلى طرابس . بخعون : من أعمال الضنية . بشرى كان لها برج يحميها . بعلبك : قلعة شهيرة من عهد الفينقيين . بيروت : كان لها برجان يعرف الواحد ببرج بيت الامير جمال الدين ، والثانى برج الكشاف أقامه فخر الدين فى طرف قصره ليكشف منه البحار والجوار . وعرفت به حتى الآن ساحة البرج . تبنين هى طورون الصليبيين Thoron فى لبنان الجنوبى . تدمر . قلعة عظيمة فى مدينة تدمر الاثريه . جبيل . ما زالت آثار قلعتها ظاهرة حتى اليوم . جزين فيها مغارة محصنة . جينين : حصن فى مقاطعة نابلس . حصن الاكراد أو قلعة الفرنجى ما زالت قائمة حتى اليوم تشهد بقاياها بعظمتها . حلب : شيد الأمير فيها قلعة على كتف الروج غير قلعتها الحالية . فضلا عن حصن قريب منها يدعى شميميس أو الشماميس . حيفا : كان لها برج هدم . دوبيه : برج فى بلاد بشاره . سلميه أو سليمه أو سلمينه : قلعة فى الشمال الشرقى من حمص . سمار جبيل : قلعة فوق البترون . شقيف أرنون : Beaufort أو بوفور الصليبيين . الشوبك : قلعة فى سنجقية عجلون . صافيتا : قلعة فى بلاد العلويين كان الصليبيون يسمونها القصر الأبيض Château Blanc . صفد : قلعة صليبية باسم الملكة أستير . صلخد . قلعة فى حوران . صهيون : قلعة صليبية فى بلاد العلويين . صور : فيها الآن برجان واحد فى الميناء والآخر فى

مدخلها . صيدا : لها قلعة فى الميناء تصل باليابسة بجسر من حجر . وأخرى قبلى المدينة تنسب إلى القديس لويس التاسع . طرابلس : قلعة صليبية قائمة حتى الآن على تلها . وقد بنى الأمير قلعة أخرى تحت منها . عجلون : كان فيها قلعة . عريميه : قامة صليبية فوق وادى الابرش أحد مراكز الدفاع عن طرابلس . غزير : عاصمة بنى عساف كان فيها قصر حصين . قب الياس : بنى فيها قلعة ما زالت آثارها ماثلة . القليعات : فى جون عكار كان فيها قلعة . القيرانية : برج فى الهرمل . اللبوه : حصن يحمى مدخل البقاع من الجهة الشمالية. مارون : قلعة صليبية بجوار دير كيفا بين صافيتا وحصن الاكراد . مصياف : قلعة بين المرقب وحماه . مغارة الحمام : بقرب صفد . نيحا : أو شقيف تيرون ، قلعة صليبية . تل الريح : حصن بقرب صفد .

القسم الثانى

السياســـة

البـــاب الأول

الشروع فى الوحدة اللبنانية

سطعت عظمة فخر الدين فى سياسته الداخلية ، الرامية إلى الوحدة اللبنانية ، وفى سياسته الخارجية ، الرامية إلى تعزيز هذه الوحدة وتأمينها ، سطوعا أبهر أبصار معاصريه ، فعدوه بحق « أكبر أمير فى الامبراطورية العثمانية » . رسم لوحدة لبنان واستقلاله وعظمته خطة واسعة النطاق ، محكمة الأجزاء ، سعى وراءها طيلة خمس وأربعين سنة بثبات وعزم ووحدة نظر ويقظة وفطنة ومرونة ، فأدرك الهدف وتجاوزه بمراحل .

من أمير مقاطعة الشوف الواقعة فى طرف سلسلة جبال لبنان الجنوبية ، أصبح الحاكم

الأوحد لمقاطعاته الخمس عشرة فضمها تحت لواء واحد سهلا وجبلا . ولم يكتف بحدود لبنان الطبيعية بل وسعها حتى وراء أدنه فى الأناضول وصحراء سوريا والجزيرة شمالا وحوران شرقا وغزة جنوبا . وقد تجاوزت قلاعه الأربعين وجنوده المئة ألفا كما مر بك بيانه .

وتأمينا لقيام هذه المملكة الواسعة من غدر تركيا وبطشها حالف أعداءها من أمراء أوربا

وإليك كلمة فى الميدان الذي كان على الأمير العمل فيه :

١ — الولايات والسنجقيات

كانت سوريا ، فى عهد الأمير ، منقسمة إلى ولايتين : حلب فى الشمال ، ودمشق فى الجنوب . ولكل منهما سنجقيات . ولم يكن الوالى والسنجق سوى موظفين موقتين ، اشتريا المنصب بالمال . لا يستقر بهما المقام حتى يدركهما النقل أم العزل . لا سيما إذا تغير وجه السياسة فى الاستانة .

وقدكان هذا الجو كثير التقلب « لضعف السلاطين » ، وجشع الوزراء ، وضغط ثورة العجم الطويلة ، التى استنفدت خزنة السلطنة ، واهلكت جيوشها وضعضعت أحوالها .

فى التقرير الذى رفعه إلى دولته فى ٢٧ شباط ١٦٠٢ ، فنسشنسو دندولو Dandolo قنصل البندقية فى حلب عدّ ١٣٣ واليا تناوبوا على الشهباء فى مدة ١٨٤ سنة ، تسعة منهم عينوا فى السنوات الثلاث التى قضاها فى هذه المدينة . وشهد الرحالة سانديس فى السنة ١٦١٠ ان والى دمشق كان يتغير كل سنتين أم ثلاث .

وإذا حطت رحال الوالى فى مقر منصبه حامت حوله مطامع طلاب السنجقيات والوظائف . فاسترد منهم أضعاف ما بذله فى سبيل وظيفته . وعمد إلى الرعية فابتز مالها بشتى الأساليب ، من ضرائب إلى جرائم إلى بلص. ناهيك عما يستوفيه من أصحاب الأغراض وطلاب الثأر ، ومثيرى الاضطهادات والفتن الدينية . هذا والوزير يغض الطرف عن مظالمه ، ولعله يشجعها ليقاسمه الغنيمة .

ولم يكن الفائزون بالسنجقيات والوظائف بأقل من الولاة وطأة على الشعب ، ليستردوا أضعاف ما بذلوه للوالى أو للوزير . لأن الوالى لم يكن له سوى أن يعرض المرشح ، والباب العالى هو الذى كان يصادق على هذا الترشيح ويحول المنصب إلى ذويه والطارقين بابه رأساً

أما لبنان فقد كان مؤلفاً من مقاطعات مستقلة ، لكل منها أميرها و نظامها وماليتها وجيشها الوطني . ولم يكن للامير علاقة بالدولة العثمانية سوى بتأدية المال المعين على مقاطعته . يورده رأساً إلى الباب العالى إذا شاء أو على يد والى دمشق . وفى ماعدا ذلك كان الأمير اللبنانى مستقلا عن الدولة العثمانية ، يحكم فى مقاطعته حسب التقاليد المرعية فى أسرته وبلاده

وكان لكل مقاطعة أسرة حاكمة عريقة فى لبنانيتها توارثت الحكم أباً عن جد . ولم يكن للامير الوارث من حاجة إلى طرق الباب العالى ليقره على منصبه . إلا إذا طمع بسنجقية يضمها إلى مقاطعته ، وكان له من كواخيه وقواده شبه مجلس شورى يأخذ رأيه فى المهام الخطيرة والأوقات العصيبة .

وللمحافظة على سلامة أراضيهم من تعدى الجيران ، وعلى الأمن الداخلى من الأشقياء والطامعين ، كان للامراء اللبنانيين ، خلاف الجيش الوطنى ، جيش عامل من المستأجرة يحرسون القلاع ويسهرون على راحة العباد وغرض الحكام من ذلك حقن دماء مواطنيهم وتوفير أوقاتهم للزراعة والصناعة والتجارة كما سبق القول . فلا يستدعون الجيش الوطنى إلا لصد هجمات أجنبية أو للقيام بحملات كبيرة .

فكان لبنان من هذا القبيل مستقلا بنظامه ، مستقلا بأماراته الوراثية ، وجميع أمرائه كانوا من أسر استوطنت لبنان منذ القرن الثانى عشر فى عهد الصليبيين أو بعيدهم بقليل وبعضها نزلته منذ القرن التاسع ، فهي إذاً لبنانية . وأشهر الأسر الحاكمة فى لبنان كانت من آل سيفا وشعيب وعساف وأبى اللمع وتنوخ ومعن وشهاب . ولنستعرض تاريخ هذه الأسر بادئين من شمال لبنان .

٢ — الأمراء اللبنانيون روى صالح بن يحي وابن سباط أنه بعيد نكبة كسروان فى السنة ١٣٠٧ التى دارت فيها الدوائر على نصارى لبنان الأوسط وعلى حلفائهم الدروز من أتباع آل أبي اللمع ، كلف التركمان من آل سيفا وعساف وأمراء الغرب من آل تنوخ ومعن محافظة السواحل اللبنانية خوفاً من هجوم الافرنج عليها واتصالهم بنصارى الجبل .

فاكبر الظن أن آل سيفا تولوا حينئذ مقاطعة عكار ، سهولها وجبالها حتى إلى اللاذقية ، أما آل عساف فقد نزلوا من الكوره بأمر الملك محمد بن قلاوون للمحافظة على الساحل اللبناني من البترون حتى غزير . وفى السنة ١٣٤٥ ، على أثر غارة ملك قبرس على بيروت ،

صدر الأمر إلى آل عساف وأمراء الغرب بسكنى بيروت والمحافظة على شواطئها . وفى السنة ١٥١٥ ولى السلطان سليم العثمانى بنى عساف بلاد جبيل والبترون .

وروى البطريرك الدويهي عن الأمير منصور عساف أن حكمه امتد من نهر الكلب حتى إلى حمص وحماه . واتخذ كواخيه من آل حبيش الموارنة . وفى السنة ١٥٧٩ قدمت عليه الشكوى لقتله ابن شعيب صاحب طرابلس فصدر الأمر بأن تكون طرابلس باشوية وأن يتولاها يوسف سيفا التركمانى .

أما مقاطعات المتن والغرب والشوف فكانت فى عهدة الأمراء الدروز ومقدميهم . ذكر المطران تادرس فى تاريخه أن بيت أبي اللمع مقدمى الشحار والجرد والبقاع حاربوا ، فى السنة ١٢٩٤ م بجانب الكسراونيين ، الجيش الدمشقي الزاحف على كسروان فكسروه فى عين صنين . وصاهر اللمعيون فخر الدين المعنى الثانى . وأعطاهم الأمير حيدر الشهابى فى السنة ١٧١١ لقب امراء . وقد تنصروا فى القرنين الأخيرين هم وآل شهاب وانضموا إلى الطائفة المارونية ، التى أصبحت صاحبة الأغلبية فى لبنان.

وكان آل تنوخ من نصارى الغرب قد اعتنقوا الاسلام فى أول ظهوره . وسكنت قبيلة منهم حلب . ثم قامت إلى الجبل الأعلى . واستوطنوا كسروان سنة ٨٢٠ م . وأقطع الملك نور الدين فى السنة ١١٩٣ الأمير حجي التنوخى القيسى مقاطعة الغرب . وفى السنة ١٣٠١ تبرأ علم الدين التنوخي من آل عشيرته وتزعم الحزب اليمنى . واختصت سلالته باسم آل علم الدين وأمست عدوة التنوخيين . وكانت الست نسب والدة فخر الدين الثانى تنوخية أصيلة . وفى السنة ١٦٣٤ لما قبض على هذا الأمير أقيم علي علم الدين مكانه فقتل آل تنوخ وأطفالهم فى اعبيه غدراً وانقطعت بهم ذريتهم .

فآل تنوخ الذين حكموا كسروان ثم مقاطعة الغرب لبنانيون منذ فجر القرن التاسع . وينتسب آل معن إلى الامير معن الأيوبى الذى أمره طغتكين صاحب دمشق سنة ١١٢٠ أن يقوم بعشيرته إلى البقاع ويصعد منها إلى جبال لبنان لشن الغـــارة على الافرنج فى السواحل . فسكن الشوف وتولاها وتوارث أولاده وأحفاده الحكم فيها .

وتولى أمراء آل شهاب مقاطعة حوران بعد الفتح العربى ، أى منذ السنة ٦٤٤ م وفى السنة ١١٧٣ نزحوا إلى وادى التيم واستوطنوه وتغلبوا فيه على الافرنج فحكموه . وبعد

سنتين ضاهروا آل معن وكانوا مع التنوخيين أكبر مساعديهم. وفى السنة ١٦٩٧ التى انقطعت فيها سلالة المعنيين فى لبنان ، بوفاة الأمير أحمد ، تولى مكانه ابن بنته الأمير حيدر موسى الشهابى . وظل الشهابيون يتوارثون الحكم فى لبنان حتى السنة ١٨٤٣ .

فأمراء لبنان جميعهم من أبنائه . وكانوا مستقلين فى مقاطعاتهم يتوارثونها أبا عن جد . بينما كانت سوريا بولايتيها رازحة تحت ثقل النير التركى رأساً يحكمها ولاة أجانب توفدهم الاستانة كموظفين مؤقتين . لا يعرفون من لغة البلاد وأحوالها سوى المال .

٣ ـ لبنان فى السنة ١٥٩٠ : وقد استخدم فخر الدين لتوحيد لبنان وضم ولايتى سوريا وسنجقياتها إليه وسيلتين : السيف والعطاء . استولى بالسيف على مقاطعات لبنان لأنها كانت أمارات وراثية . وابتاع من الدولة العثمانية بالمال ولاية سوريا وفلسطين وسنجقياتهما لأنها كانت تباع كالسلع فى أسواق الاستانة لمن يزيد فى العطاء .

ولنلق نظره على حالة لبنان فى السنة ١٥٩٠ التى تولى فيها الأمير ادارة الشوف .

إن سلسلة الجبال الجبارة ، المنتصبة على الشاطىء الشرقى من بحر الروم ، الناطحة السحاب على ارتفاع ٣٠٦٤ متراً ، قد نصبت لبنان سيداً على البحار والسهول المنبسطة تحت قدميه . ولما كان سيداً كريماً شق ذيل ثوبه الأخضر المخملى خلجانا ظريفة لجأت اليها القوارب من عواصف البحار ، ووزع بسخاء على السهول المحيطة به المياه المتدفقة من جنباته ، المتجمعة من ثلوج رأسه .

بيد أنه حرم نفسه خيراتها وأساء إلى نفسه الاساءة كلها . لأن السيول الهادرة جرفت تربته إلى السهول فعقمته وأخصبتها ، والأنهر المتدحرجة فتحت فيه الأودية العميقة كجروح بالغة فى جسمه فاستنفدت دماءه لتغذية السهول . فنضب هو وأخصبت هى . وقد جزأته الأودية والأنهار والجبال ومطامع الامارات إلى مقاطعات مقطعة الاوصال : عكار . طرابلس . الضنيه . الجبه . البترون . جبيل . الفتوح . كسروان . القاطع . المتن . الغرب . الشحار . الجرد . الشوف . وادي التيم . البقاع . جبل عامل . بلاد بشاره . صيدا . صور .

لما تولى الأمير فخر الدين الشوف كان يحكم هذه المقاطعات أمراء ومقدمون . توصل اثنان منهم ، منصور بن الفريخ جنوباً ، ويوسف باشا سيفا شمالا ، بالمكر والجسارة والقسوة إلى ضم أكثرها ، وأخذا يعدان العدة لابتلاع البقية .

كان ابن الفريخ ضاغطا بيمينه الغليظة على البقاع والجليل وعجلون ونابلس ، وابن سيفا كان قابضا على طرابلس والجبه والضنيه وعكار وكامل سوريا الوسطى مع شبكة قلاعها وحصونها المنيعة. وكانت له الكلمة النافذة فى الاستانة . أما الأمير محمد عساف فكان متولياً الكورة والبترون وجبيل والفتوح وكسروان حتى بيروت . وقد جعل عاصمته غزير ومشايخ آل حبيش الموارنة وزراءه وعطف على رعاياه المسيحيين .

أما مقاطعات المتن والغرب والشوف فلبثت بيد المقدمين الدروز من آل أبي اللمع وتنوخ وعلم الدين .

على أن أبصار الداهيتين فروخ وسيفا كانت ترنو إلى بقية المقاطعات اللبنانية وقد اتفقا على ابتلاعها وانتظرا الفرصة ، فأتتهم . فى السنة ١٥٨٤ نهبت خزينة السلطان فى جون عكار التابعة لابن سيفا فاتفق هذا مع ابن الفريخ على إلصاق التهمة بأمير الدروز حاكم الشوف وبمحمد العساف حاكم جبيل والبترون والفتوح وكسروان ليتخلصا منهما دفعةواحدة ويغنما مقاطعاتهما . فحضر ابراهيم باشا والى مصر إلى الشوف بعسكر جرار وأنهى إلى الأمير قرقماس بن معن والد الأمير فخر الدين باحضار الغرماء . ولما لم يكن لديه غرماء اختفى . فأباح الباشا لجنوده أموال الدروز وأعراضهم ورؤوسهم . فقتلوا منهم ستين ألفاً وأمعنوا فى نهب بلادهم وحرقها . ولما حضر ستمائة من عقالهم ليسترضوه غدر بهم وقتلهم .

وحضر لديه الأمراء محمد بن العساف من غزير ، ومحمد جمال الدين من عرامون الغرب وابن عمه الامير منذر من اعبيه فأخذهم مكبلين إلى الاستانة ، حيث برأوا أنفسهم لدى السلطان مراد بن سليم . فعاملهم بالحلم وأعاد إليهم مقاطعاتهم . أما الامير قرقماس المعنى فلجأ إلى مغارة جزين حيث مات عن ولدين هما الأمير فخر الدين والامير يونس .

وكان خالهما الامير سيف الدين التنوخى حاكم الغرب قد ضمن أيضاً الشوف . ففى السنة ١٥٩٠ ، لما بلغ الأمير فخر الدين الثامنة عشرة ، سلمه مقاطعة أبيه «وقواه بالمال والرجال» .

هذا هو الميدان المضطرب الخطر الذي كان على الامير فخر الدين خوض غماره .

لما تحالف سيفا وابن الفريخ على هلاك الامراء اللبنانيين وابتلاع مقاطعاتهم وكانا صاحبي الحول والطول فى لبنان وسوريا وفلسطين والاستانة ، جمع الأمير عليهما المبغضين والمستائين والمزاحمين وطلاب الثأر والغنيمة . فأصبح لديه فجأة و بلا نفقة جيش

قوى ان لم يواز جيشهما عددا وعدة ، فاتهما ببأس قائده ويقظته. منهم أقاربه من آل شهاب حكام وادى التيم برعاياهم الدروز ، وآل حرفوش الذين ولاهم البقاع ، وهم من أهل الشيعة ، وعرب المفارجة مشايخ حوران ، وعرب قنصوه أمراء عجلون، وعلى باشا جنبلاط والى حلب ، وموارنة جبيل والبترون والجبة فى لبنان الشمالى ، الذين عملوا لمصلحته ضد سيفا عدوه وواليهم تخلصا من ظلمه . فضلا عن مقدمى بيت الصواف وأبي اللمع ومشايخ الجرد والشوف وجانب من كسروان .

وكان الأمير فخر الدين يتوسط لهم فى تولى المقاطعات ويعززهم فيتعزز بهم . وإذا سنحت الفرصة شد أواصر المحالفة بالقرابة. فصاهر آل شهاب وحرفوش وأبي اللمع ويوسف سيفا ذاته . وبرهن لهم أنه أخلص الاقرباء إذا أخلصوا له . وإن خانوه استعان عليهم بالقرابة كما سيأتى بيانه .

الباب الثانى

الشروع فى الوحدة اللبنانية

لم يعتل الأمير فخر الدين عرش أبيه حتى شعر به يتقلقل ، ولم يكد يعد العدة ليصمد عليه حتى دفعته الحوادث إلى خوض ميدان القتال .

١ ـ مقتل محمد عساف

فى السنة ١٥٩٠ توصل ابن سيفا إلى ايقاع الأمير محمد عساف فى كمين بين البترون والمسيلحه والغدر به . فانقرضت به دولة بنى عساف الذين استوطنوا لبنان منذ السنة ١٣٠٦ .

وبعد ثلاث سنين تزوج سيفا أرملة ضحيته ووضع يده على جميع أملاك آل عساف وأموالهم . فتسنى له بهذه الضربة أن يضم اليه مقاطعات الكوره والبترون وجبيل والفتوح وكسروان حتى بيروت وأن يصبح ذا ثروة هائلة جمعها آل عساف طيلة ثلاثة قرون ، وذا سلطة واسعة تمتد من اللاذقية حتى بيروت . فامسى بقية أمراء لبنان ومقدميه تحت رحمته .

ووجد فخر الدين نفسه بين مخلبي ابن سيفا وحليفه ابن الفريخ وكل من الاثنين جبار غدار ، فاصبح الخطر داهماً خطيراً لا يحتمل تلافيه تأجيلا . فرأى الأمير أن يتخلص أولا من ابن الفريخ ليحمي ظهره ويضعف سيفا عدوه . ثم يتحول عليه بكليته . وقد فاز بأمنيته الأولى دون أن يجرد السيف من غمده . لم يتكلف سوى كمية قليلة من الدريهمات وبعض كلمات معسولة .

٢ — مقتل ابن الفريخ

فى السنة ١٥٩٢ وُلي مراد باشا ولاية دمشق. ولما بلغ صيدا لاقاه الأمير بالهدايا وخوّفه من سطوة ابن الفريخ ، واطمعه بقتله . فاحتال مراد باشا عليه حتى قتله وكلف فخر الدين التخلص من أولاده العشرة . فكبسهم الأمير ونهب بيوتهم . وفر أكبرهم قرقماس الظالم إلى قب الياس . فاوعز الأمير إلى حليفه موسى ابن الحرفوش فغدر به وتسلم منه البقاع .

وكان على الأمير أن يعمل على ابعاد ابن سيفا عنه ، فما زال بمراد باشا صديقه حتى سعى له بولاية بيروت وباستعادة صيدا . فسكن الأمير صيدا ورمم قلعتها وأقام سورها ونشط تجارتها وجعلها عاصمة ملكه وأكبر ميناء فى الشرق الأوسط كما رأيت .

وفاز الأمير من مراد باشا لحلفائه بسنجقيات ابن الفريخ . فسلم البقاع لموسى حرفوش وعجلون لحمدان قنصوه وحوران لعمر شيخ المفارجه . فتقوى بهم وكثرت اتباعه .

وهكذا ظهرت حكمته وعفة نفسه . فقد اكتفى من تركة غريمه ابن الفريخ بسنجقية صيدا . وسلم إلى حلفائه بقية السنجقيات ، وجعل له منها حول ولايته الجديدة منطقة صديقة تتلقى عنه صدمات العدو الأولى ، وتخوله الوقت الكافى لمنعه عن دوس أراضيه .

٣ — منازلة سيفا

أصاب الأمير فخر الدين بسهمه السياسى الأول هدفا كثير الشعب كان له الشأن الخطير فى مشروعه الكبير وفى حياته . ثأر لأبيه وذويه بمقتل ابن الفريخ الذى وشى بهم زوراً ، وتخلص من عدوانه وطغيانه ، واضعف ابن سيفا عدوه الآخر وسلخ عنه بيروت ، واسترجع صيدا ، فضلا عن سنجقيات عجلون ونابلس والبقاع التى وزعها على حلفائه ، فاشتد بهم وأصبح فى مقدوره التفرغ لمنازلة ابن سيفا . الذى بدأ نجمه بعد هذه الضربة فى النزول حتى الافول ، بينما أخذ نجم فخر الدين فى الصعود حتى أوج السماء .

على أن استيلاءه على بيروت كان تحديا لابن سيفا . فتريث هذا إلى السنة ١٥٩٨ التى ترك فيها مراد باشا ولاية دمشق وجمع على فخر الدين جيشاً كثيفاً لاسترجاع بيروت . فنادى الأمير بحلفائه وانتظره فى وادى نهر الكلب الضيق ، حيث لا يسع الجيش الضخم التحرك ، وهناك باغته واعاده على اعقابه ، وسلخ عنه كسروان والفتوح .

وجد سيفا نفسه مغلوباً فى ميدان الطعان من هذا الشاب الناشىء فلجأ إلى المداهنة . وما زال به حتى صالحه واسترد منه المقاطعتين . فضل الأمير صداقة هذا العدو ، الذى كان سيد البلاد الأكبر وصاحب النفوذ العظيم لدى الباب العالى ، على معاداته . على ان سيفا ما عتم أن خانه وبعث سنة ١٦٠١ بمن غدر بمقدمى جاج حلفاء الأمير . فاوعز هذا إلى موسى حرفوش فكبس فى السنة ١٦٠٢ جبة بشرى التابعة لسيفا ونهب بيوتها وسايقتها. فما كان من سيفا إلا أن جمع عليه خمسة الاف مقاتل وكبس بدوره بعلبك وحاصر القلعة خمسين يوماً حتى ملكها وقتل بعضاً من حلفاء فخر الدين . ثم قصد فى السنة ١٦٠٥ إلى جونيه. بيد أن فخر الدين كان واقفاً له بالمرصاد. فتصدى له هناك وهزمه شر هزيمة وانتزع منه كسروان والفتوح .

٤ — المصاهرة

لم يكن كسروان سوى ذنب الأفعى . فقد بقيت فى حوزة سيفا مقاطعات لبنان الشمالى ، فضلا عن سوريا الوسطى ، أى أنه ظل محتفظاً بقواه الحربية والمالية والسياسية . وكان علي باشا جانبولاد قد عصى الدولة بعد مقتل عمه حسين باشا غدراً واغتصب ولاية حلب، فطلب سيفا من الاستانة أن يُقلد الامارة على عساكر الشام فيلتزم بإزالة العاصى . ولما جاءه الأمر على ما التزم أرسل إلى عساكر الشام أن يجتمعوا فى حماه . فتجمعوا هناك .

وبعث على باشا يستنجد بفخر الدين . فأسرع برجاله واحتل طرابلس . ولما تلاقى الجيشان انكسر سيفا ، وبينما كان منهزما إلى دمشق سد عليه فخر الدين الطريق فاضطر أن يركب البحر إلى قبرس ثم إلى غزه ، حيث أنجده الأمير طرابيه صاحبها برجال أوصلوه إلى دمشق . فلما علم الحليفان بمجيئه إلى دمشق قصدا إليها ونازلاه فى أواسط تشرين الأول سنة ١٦٠٦ فكسراه والجآه إلى الهرب . واستباح على باشا المزه ثم دمشق ولم يرجع عن هذه حتى راضاه أهلها بمبلغ مئة وخمسة وعشرين ألفاً . ولما عرض قسما منه على فخر الدين أبى قبوله

ولجأ ابن سيفا إلى حصن الأكراد فى مقاطعة عكار ، فقصد إليه علي باشا وحده لمرض فخر الدين واستصفى منه ما يقرب من ثلاث كرات من القروش . ثم صالحه على أن يزف إليه احدى بناته وأن يزف على باشا شقيقته إلى احد أولاده . ولما علم فخر الدين أرسل يهدد حليفه بقطع علاقاته معه إنْ هو قبل بمصاهرة ألد أعدائه . فنزل على رغبته وأنزل بنت سيفا لدى احدى قريباتها فى حلب . على أن سيفا لم يعدم وسيلة لارضاء الحليفين . وأكبر الظن أنه زفّ إلى فخر الدين فى هذه المناسبة عليوه بنت الأمير علي ابن شقيقه .

على أن سيفا ولد خائناً . ففي السنة التالية لما جهز الباب العالى حملته على علي باشا جانبولاد ، وأسرع فخر الدين لنجدته ، كان سيفا أول من وقف فى جانب الوزير ضد صهره الحلبي . وكان أول من سعى لدى الباب العالى ضد فخر الدين صهره الآخر ودبّر عليه حملة السنة ١٦١٣ . وقد انتهز فرصة غيابه فى تسكانا فغزا بلاده وأحرق قصره فى دير القمر ، واسترد منه بيروت وكسروان . وفى السنة ١٦١٥ لما تمكن الأمير علي بن فخر الدين من استرجاع ولاية أبيه ، جمع سيفا عليه جميع أعداء المعنيين من يمنية وغيرهم . إنما لقي جزاء خيانته بكسرة شنيعة مني بها على يد جيش فخر الدين كما سيأتى بيانه .

البـــاب الثالث

اتمام الوحدة اللبنانية

(١٦١٨ — ١٦٢٤)

إن نفي الأمير فى ايطاليا ، الذى استمر خمس سنين وأذاقه مرارة الغربة والذل والفقر لم يثبط عزيمته بل شحذها ، فعاد إلى لبنان فى آخر ايلول ١٦١٨ مصمماً على قهر ابن سيفا واتمام الوحدة اللبنانية وماوطئت رجلاه أرض عكاء التى كانت تابعة للبنان ، حتى

وفد أمراء البلاد ومشايخها للسلام عليه . وكان بينهم حسن بن يوسف سيفا جاء بهدية من الخيل . فالتفت إليه الأمير وقال له « ما نحن بحاجة إلى هذه الخيل بل إلى أخشاب نعمر بها حارتنا فى دير القمر التى أحرقها أبوك ، والى الاثنين والعشرين ألف قرش التى استدانها من جماعتنا فى الاستانة ، وإلى طرشنا وطرش توابعنا الذى أودعناه إياه قبل سفرنا ، فضلا عن وقوفه بجانب حافظ باشا لما غزا بلادنا ونهبها ، وشكواه علينا إلى الباب العالى وتعييره إيانا بقصر القامة ونحول الجسم ، ثم هتف شعرا .

نحن صغار وأنتم كبار — أنتم نخل ونحن للنخل منشار

بحق زمزم والنبى المختـــار — لأعمرك يا دير بحجار عكار

١ ـ جبيل والبترون

كان عمر الكتانجى قد تعين على ايالة طرابلس ، ولما لم يمكنه سيفا من مالها استنجد عليه بفخر الدين ، فجمع جموعه وحلفاءه ، منهم الشيخ أبو نادر الخازن وافاه برجال كسروان ، فأوعز إليه أن يربط طريق نهر ابراهيم . وكانت ليلة ممطرة فسبقهم الأمير بثلاثمائة رجل إلى طرابلس . أما سيفا فهرب الى الحصن وأرسل احماله بطريق آخر فوقعت بين يدى الأمير . وكانت كمية وافرة من أصناف الحرير والأنسجة . وقبض رجاله على الطفل محمد بن حسن سيفا ، ابن شقيقة على باشا جانبولاد فارسله الى والدته سالما .

ثم حاصر الأمير الحصن وضيق على ابن سيفا حتى نفد الخبز من بين يديه وأكل ورجاله لحم الخيول . فاضطر الى مصالحته لقاء ستمائة ألف قرش ، نقده منها مئة ألف ورهن له أملاكه فى طرابلس وغزير وبيروت ضماناً للبقية .

وفى أثناء الحصار ركب الأمير مع بعض رجاله الى عكار وهدم جميع قصور ابن سيفا ، ما عدا قصر الأمير محمد الصغير ، ونقل حجارتها الصفراء الجميلة الى البحر ومنه الى صيدا فدير القمر حيث تشاهد حتى اليوم فى أغلب ابنية المعنيين

واستولى على مقاطعتى البترون وجبيل وأقام أبا نادر الخازن حاكما على الأولى والمقدم يوسف ابن الشاعر على الثانية . وهدم قلعتها ليترك باب هذه المقاطعة مفتوحا اذا تسنى لابن سيفا استرجاعها . ووضع سكانه فى قلعة سمار جبيل . وتريث حتى أعاد الأهالى الهاربين وطمأنهم على أرواحهم وأموالهم لأن غايته كانت عمار البلاد .

وهكذا أضعف حليفه مالياً وسياسيا

٢ — جبة بشرى — هي مهد الموارنة حلفاء فخر الدين وأغنى المقاطعات اللبنانية بالرجال الأشداء والحرير والزيتون والأثمار . بيد أن سيفا جعلها خرابا بظلمه وجشعه . فوعد الأمير أهلها بتخليصهم وانتظر الفرصة .

ففي السنة ١٦١٩ أرسل سيفا ابن أخيه محمد يعرض على الأمير اعادة مقاطعتي جبيل والبترون إليه لقاء تنازله عن أملاكه في غزير . فأجاب الأمير « لقد اشتكى علي عمك إلى الباب العالي بعد أن عقد الصلح بيننا . فإما أن ينزع نعمتي أو أنزع نعمته ، ولقد صممت على ضمان طرابلس ولواحقها » . قال هذا وعرض على الباب العالي مئة ألف قرش ضماناً لهذه المقاطعة . فوعد سيفا بمئتي ألف ذهب خدمة للسلطان وبثلاثين ألفاً لوزيره فضلا عن المال . ولما لم يتمكن من الوفاء بوعده كلف الصدر الأعظم فخر الدين تحصيل الأموال المتأخرة .فعرض الأمير على سيفا أن يبتاع منه مخلفات آل عساف في بيروت ومزرعة انطلياس مع حارة غزير بخمسين ألفا يسددها عنه . فاضطر إلى التنازل له عنها . ولما تم له ذلك طالبه ببقية الأموال المتأخرة للباب العالي . فتمنع . فهجم على طرابلس وافتتحها في الثاني والعشرين من تموز السنة ١٦٢١ ونزل قصر حسن باشا ابن يوسف سيفا وحاصر القلعة . فاطلقت حاميتها على القصر ثلاث قنابل لقتله . على أن الأمير كان خارجا عنه . فلما علم بالخيانة أمر بدكه وكانت عمارة عظيمة كلفت خمسين ألفاً . وأوفد الأمير الشيخ أبا صافي الخازن فدخل برج بشرى وطرد منه رجال سيفا وضبط المقاطعة .

وهكذا تسنى للأمير ضم جميع المقاطعات المارونية إليه فتقوى بهم وتقووا به . فكانت نهضتهم على يده وكان نجاحه على يدهم . وزاد سيفا عدوهم ضعفاً على ضعف وفقراً على فقر .

٣ — الضنيه وعكار — بقي على الأمير أن يقطع مرحلة طويلة لبلوغ غرضه من الوحدة اللبنانية . فقد استعاد سيفا طرابلس لقاء عهد قطعه بتسديد المتأخر عليه للباب العالي ولتجار الاستانة . بيد أن موارده شحت كثيراً بفقد المقاطعات والأملاك التي انتزعها منه فخر الدين . بينما كانت الديون تتراكم عليه والفوائد تثقل كاهله .

وفي السنة ١٦٢٣ لما بعث سيفا بكواخيه إلى الاستانة ليتدبروا مالا يرضى به الباب

العالى قبض الصدر الأعظم عليهم، فاعتذروا بفراغ أيديهم وأشاروا على الوزير باقرار ولاية طرابلس على عمر باشا الكتانجى صديق فخر الدين . فجاء عمر باشا وسأل الأمير مساعدته على تسلم الولاية . فوعده الأمير بالمعونة إن هو كتب له مقاطعتى عكار والضنيه ، لقاء تقديم ماlهما سلفا . فنزل عمر باشا عند رغبته لشدة حاجته إلى المال . ولما تغيرت الوزارة تمكن سيفا من استعادة ولاية طرابلس فاشترط عليه فخر الدين أن يسلم عكار إلى بلك ابنه وصهر الأمير . فلباه مرغما . ثم عن له استعادتها انتقاما ، لانحيازه إلى جانب الأمير . فشد الأمير أزره وأقنعه بالاتفاق مع ابن عمه سليمان سيفا صاحب صافيتا على طرد سكان والده والاستقلال بالمقاطعتين . ولما توفى حسين باشا بن يوسف باشا سيفا الذى صاهر هو أيضا الأمير أرسل أخوه عمر صاحب حمص يطلب أرملته . فرضى فخر الدين بذلك .

وحلت الصداقة بينه وبين صهره الجديد محل العداء القديم . وسنرى بلك وسليمان سيفا فى جانب الأمير فى موقعة عنجر وغيرها . مما يشهد بحسن فراسة الأمير فى مصاهرة أعدائه والتوسل بها إذا خانوه لاضعافهم .

٤ — البقاع

لما انتزع فخر الدين البقاع سنة ١٥٩٣ من يد ابن الفريخ تركها لحليفه موسى الحرفوش . وفى السنة ١٦٠٦ انحاز موسى إلى سيفا فى موقعة عراد فسلمها الأمير إلى يونس حرفوش ابن عم المذكور وعززه ووضعه تحت كنفه . بيد أن يونس خانه فى السنة ١٦١٣ التى سافر فيها الى تسكانا وقتل بعضاً من سكانه . ثم حشر نفسه فى السنة ١٦١٥ بين المعنيين وجركس باشا فتسبب بهدم قلعتى بانياس والشقيف . ثم توصل بنفوذهم إلى استرداد مقاطعة البقاع الذي كان فقدها . وفاز لابنه أحمد بكريمة فخر الدين وحمله على أن يزف ابنته المترملة إلى حسن ابنه الآخر . وعلى التوسط للمذكور بسنجقية حمص . وبلغ يونس حرفوش بتأييد الأمير مكانة كبيرة من الثروة والقوة .

ولما وجد فخر الدين قد فشل فى حملته على الأمير طرابيه صاحب غزة جمع عليه كل حساده ومناوئيه وكتب إلى كرد حمزه رئيس انكشارية الشام ليتحد معه . فوقعت الرسالة فى يد فخر الدين . ولما رأى يونس حرفوش أن مكيدته قد انفضحت كشف القناع عن خيانته ، وما زال بمصطفى باشا والى دمشق حتى حمله على نزع سنجقيتى صفد ونابلس من فخر الدين وعلى قيادة الجيش المتحالف لغزو لبنان .

وما بلغ الأمير ذلك حتى ترك فلسطين وأسرع برجاله إلى البقاع . واستنجد بآل شهاب أصحاب وادي التيم فانجدوه برجالهم .

وكان جيش دمشق وحلفاؤه قد بلغ اثنى عشر ألفا اجتمعوا فى عنجر للزحف على لبنان . فقسم الأمير جيشه المؤلف من أربعة آلاف إلى أربعة أقسام ، وأوقف الثلاثة فى مواقف تحيط بالجيش الشامى ، وضرب بفرسانه مقدمة العدو ضربة مؤلمة ألوتها . فانكشفت مؤخرة فرسان الانكشارية وتقهقرت . وانتهز الأمير فرصة تضعضع العدو ونادى بالهجوم العام . فانقض اللبنانيون على الدمشقيين انقضاض الصقور على العصافير فمزقوهم وأعملوا الضرب فى أقفيتهم حتى أوصلوهم إلى بوابة المدينة ، ووقع مصطفى باشا أسيراً مع رايته . بيد أن الامير فى نشوة النصر ظل هادئاً محتشما . فقبل ذيل الباشا وعين من يوصله سلما إلى قب الياس . وتريث حتى العصر ريثما حمل جيشه الغنائم . وكانت وافرة . ثم ذهب لمقابلة الباشا . فاعتذر هذا أن الحرب لم تكن برضاه وان مسببها كرد حمزة ويونس حرفوش وأباح له أرزاقهما . وولاه البقاع وجدد له سنجقيات صفد ونابلس وعجلون وزاد عليها غزه الخاصة بابن طرابيه خصمه . قال الخالدي :

« وظل الدروز وأهالى كسروان وجبيل والبترون وبشرى ووادي التيم يشتغلون فى نقل الغلال نهاراً وليلا حتى لم يبق أحد من رجال الامير بلا مكسب » .

ولما ضم الامير البقاع إلى ولايته تسنى له الاتصال بحلفائه الشهابيين أصحاب وادي التيم . وكانت أواصر القرابة قد تمكنت بين الاسرتين لما اقترن على معن بكر فخر الدين بجهان كريمة الامير علي الشهابي . وكانت على جانب كبير من الذكاء والادب والرقة

٥ ـ طرابلس والكورة

فضل الامير فى بادىء الامر تطويق طرابلس على ضمها لانها كانت من أملاك السلطان . وفى ٢٠ تموز ١٦٢٥ توفى يوسف باشا سيفا منهوك القوى سياسيا وماليا . وكان الامير فى فلسطين منهمكا فى ترتيب سنجقيات عجلون ونابلس وغزه . فعجل فى الاتفاق مع عرب تلك الجهات وأسرع إلى طرابلس فدخلها فى كانون الاول وأمعن فيها نهباً وسلباً طيلة أربعين يوما . ولما عرضها الباب العالى عليه ، تظاهر بالتمنع قناعة وحشمة . بيد أنه بذل المساعى سراً حتى نالها باسم ابنه حسين الذى رزقه من زوجته علوه بنت الامير على سيفا ابن أخى يوسف باشا سيفا . وعين الشيخ أبا نوفل الخازن وكيلا له .

وحالما تسلمها جد فى عمارها مصرحا بقوله «أنا خربتها وأنا سأعمرها». قال الدويهى «فمشى ساقية القاع وعمر القليعات فى ارض جون، طرابلس ونصب فى مغراقها ١٤ ألف نصبة توت ونصب بستانا أكبر من ذلك فى أرض الحيصة». وشجع بعض تجار صيدا على الانتقال إليها

وكانت الكورة تابعة لطرابلس فضمها إلى ولايته وأخذ أهلها، وأغلبهم ملكيون، يشتركون فى حملاته.

وهكذا تسنى لفخر الدين بسيفه ودهائه اتمام الوحدة اللبنانية التى تتمتع بها الآن الجمهورية اللبنانية،

الباب الرابع

التوسع فى سوريا وفلسطين

١ ـ سياسة الأمير مع الباب العالى

كان الأمير يكره الدولة العثمانية بصفة كونه لبنانيا ودرزيا ومعنيا، لأنها ظلمت بلاده وبنى ملته وأسرته. لاسيما فى السنة ١٥٨٤ لما اجتاحت جنودها الشوف وأعملت فيه نهباً وحرقا وقتلت من دروزه ستين ألفا وغدرت بستمائة من عقالهم، وسببت موت والده وخروج السلطة من يده، كما شرحنا سابقاً. وقد أقسم الامير وبنو جلدته بأخذ الثأر. وثأر الدرزى لا يموت.

بيد أن الدولة العثمانية كانت سيدة الشرق المطلقة، يرتعش لذكرها أمراء أوربا أنفسهم مع ما بلغوا إليه من الحول والطول. فكان على الأمير، للوصول إلى غرضه من الانتقام والاستقلال، أن يلجأ إلى التسلح والتحصن والتآمر سراً. وإلى المداهنة ظاهراً.

كان يتوسع ويثري على حساب جيرانه، و يتحالف سراً على الدولة العثمانية مع الامراء الأوربيين والعصاة الشرقيين. وإذا مر بجواره وزير من وزراء الدولة أسرع إلى ارسال الوفود إليه بالمؤن والمال. فيشترى بهذه الطريقة ضمائر الوزراء وصداقتهم وحمايتهم ويبدد

ظنونهم به ، متظاهراً بالطاعة للباب العالى والتعلق بأهداب السلطنة العثمانية حتى إذا بعدظلهم عاد إلى مضايقة جيرانه والتآمر على الدولة.

على أنه كان معتدلا فى عدائه ، فقد كان يتحاشى المجازفات بلا طائل ويمتنع عن مساعدة أعدائها إذا لم يكن واثقا من نجاحهم . بل كان ينصحهم دائما بالتؤدة والتعقل .

سبق القول عن قيامه بتسديد الأموال الأميرية فى مواعيدها ؛ وأحيانا سلفاً ، محافظة على مركزه وتبديداً للظنون الحائمة حول أغراضه فى التوسع والتحالف مع أمراء الدول الاوربية . ولما كانت الخزينة العثمانية بحاجة دائمة إلى المال ، فكانت دقته فى الدفع تفوز له دائما بالرضى لدى الباب العالى ، وبما يشتهيه من المقاطعات والامتيازات .

ولم يكن يكتف بما عليه من الأموال بل كان يضيف إليه تقادم خاصة للسلطان وعظمائه. ولما كان الجميع راضين ببيع ضمائرهم لم يكن يحجم عن شرائها .

وكان له بينهم من يتكفل الدفاع عنه والسعى فى قضاء مصالحه . وإذا فاز بمنصب عال تذكر هذا الكبير خدمات الأمير له فيقوم بدوره بمساعدته . كما جرى لمحمد باشا القبودان الذى مر بعيون البحر معزولا عن ولاية مصر « فخدمه الأمير بشىء كثير » حتى إذا تولى الصدارة العظمى فى السنة ١٦١٤ مكان نصوح باشا ، عزل أحمد باشا الحافظ خصم الأمير وولى مكانه جركس باشا وأوصاه بالأمير وأهله خيرا . فأطلق الست نسب والدة فخر الدين التى كانت محجوزة فى دمشق وكتب اليه وهو فى تسكانا ليرجع إلى ولايته. ولما استبطأه عيّن ابنه الأمير علي مكانه .

وهذا لا يعني أن الأمير كان يأمن جانب هؤلاء . فقد كان يحاذر الاجتماع بهم . ويكتفى بارسال الوفود والهدايا اليهم دون أن يقابلهم . ففى السنة ١٦١٩ بلغ الباب العالى ما أقدم عليه بعد رجوعه من ايطاليا من نهب طرابلس وتخريب عكار وبناء قصر حصين فى صور فأوفد على باشا بالعمارة العثمانية إلى لبنان . ولما بلغ هذا صيدا بعث اليه الأمير بكمية وافرة من المؤن وبخمسة آلاف قرش هدية ، فنزل الباشا المدينة وأرسل يؤمنه على نفسه ويستدعيه لمواجهته . فبعث الأمير بمن يقول له بصراحة «ان حضرتُ ومسكتنى حنثتَ بعهدك ، وان لم تمسكنى جلبتَ عليك لوم الدولة » . فاقتنع الوزير بهذا الجواب وتركه وشأنه .

وكان له فى الاستانة وفى دمشق وكلاء من أكابر القوم يعملون لمصلحته برواتب معينة فيطلعونه على مجرى السياسة العثمانيـة وتطوراتها وأحوال السلاطين والوزراء والولاة والتهمات الواردة اليهم بحقه ، والمكايد التى تدبر عليه .

وكان يوفد كل سنة واحداً أو أكثر من كواخيه المجيدين اللغة التركية للاتصال بالكبراء والفوز منهم بما يرنو إليه من سنجقيات وامتيازات، مثل الحاج كيوان بن عبد الله الذى رافقه الى تسكانا، ومصطفى بك كتخدا الذى اصطحب الأمير ابنه معه إلى هناك ثم سعى له بولاية جبلة واللاذقية وسلمه سنجقية نابلس . والحاج درويش آغا الذى فاز له بلقب «سلطان البر» وغيرهم .

٢ ــ التوسع فى فلسطين

جاءت هذه السياسة الرشيدة بأبهر النتائج . فتحت أمام الأمير باب التوسع فى فلسطين وسوريا على مصراعيه فأنشأ مملكة عظيمة ، طالما حلم بها ويحلم بها الوطنيون ، تضم دول سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . بيد أن لبنان كان سيدها ، وأميره سلطانها . وإليك طريقة تكوينها .

١ ــ صفد ــ كانت قاعدة المنطقة المنبسطة بين الناقورة وحيفا ونهر الأردن الخارج من جنب لبنان . يدخل فى نطاقها الجليل كله بما فيه عكا والناصرة وطبريه والعفوله والحوله، وسهولها المروية من النهر المذكور . تولى الأمير هذه السنجقية سنة ١٦٠٢ وأحل المرسلين الافرنج فى الناصرة وعكا وطبريه.وقد وصف الخالدى حالة البؤس التى كانت فيها وما صارت إليه على يد الأمير من الرخاء والأمن والعدل. وكان قد اتخذ فى بادىء أمره لقب «أمير صيدا والجليل» ودعاه البابا بولس الخامس سنة ١٦٠٩ والبارون دهاى سنة ١٦٢٤ «أمير فنيقيه وفلسطين» .

٢ ــ عجلون وغزة ونابلس وحوران واللجون ــ كان الأمير يرنو الى هذه المقاطعات بعين الشوق ليقترب من أورشليم فيطوقها ويحل أمير تسكانا حليفه فيها فيستعين به على الدولة العثمانية . ولما كان فى بادىء الأمر منشغلا بمشروع الوحدة اللبنانية اكتفى بأن يسلم هذه السنجقيات الى حلفائه . وبعد أن وحد لبنان سعى فى ضمها إليه .

كان يتنازع سنجقية عجلون اخوان من آل قنصوه ؛ حمدان حليف الأمير ، وبشير حليف عدوه طرابيه صاحب غزه . وكانت المشادة على سنجقية حوران والجولان واللجون

واقعة بين قبيلتين : عرب المفارجة ، وعلى رأسهم صديقه الشيخ عمر ، وعرب السردية وعلى رأسهم الشيخ رشيد .

غير أن تدخله فى منازعاتهم ومشاكلهم جـــر عليه متاعب شتى منها غضب الدولة عليه سنة ١٦١٣ ، والحملة التى جهزتها ضده ودفعته إلى المنفى فى ايطاليا .

لذلك نراه بعد عودته من ايطاليا عاملا على إلحاق هذه المقاطعات بمملكته رأساً . فنال فى السنة ١٦٢٢ من خليل باشا سنجقية عجلون باسم ولده حسين . وفى السنة التالية فاز بسنقية نابلس . وبعد نصرة عنجر أقره مصطفى باشا والى دمشق عليهما وزاد له سنجقية غزه .

٣ — التوسع فى سوريا

فى السنة ١٦٢٥ بعد موت يوسف سيفا باشا تقررت بلاد بعلبك على الأمير . فقصد إليها ولما شعر يونس حرفوش بقدومه هرب بعياله إلى حلب . ثم ركب مصطفى باشا صاحب طرابلس على بيت سيفا واستدعى الأمير إلى نجدته . فزحف الأمير على البقاع واللبوه والهرمل . وكان سليمان بن سيفا متحصنا فى صافيتا ، فلما علم بمجيء الأمير سار إلى سلميه ليستعين بالأمير مدلج فطرحه هذا فى نهر الفرات. وطلب أولاد سيفا رضى الأمير فسلموه قلعتى الحصن والمرقب. فطاب خاطره عليهم ومنع عنهم باشا طرابلس .

ثم دخل مدينة سلميه وهـدم سورها وملك قلعتها . وحكم مدينتى حماة وحمص وسلمهما لجماعته . ولما قدم خليل باشا إلى حلب ليركب على الامير طلب منه تسليم قلاع الحصن وصافيتا وسلميه وشميميس . وكان يونس حرفوش يحرج صدر الوزير عليه واشرط على نفسه إن سلم الأمير القلاع فليقطع رأسه . فسلم الامير القـــلاع وقطع الوزير رأس ابن الحرفوش . وهكذا تخلص الامير من عدويه الألدين حرفوش وسيفا وأولادهما . فصفا له الجو وعاد إلى التبسط وراء حدود لبنان .

وأفادنا الخالدى أنه بعد أن تلق سنة ١٦٢٤ من الاستانة الخط الهمايوني بأن يكون متولياً على دائرة عربستان من حد حلب إلى حد القدس مع لقب « سلطان البر » سار بتسعة آلاف من سكانه وخمسة آلاف من اللبنانيين من بيروت إلى نهر ابراهيم إلى البترون

الى عكار إلى جبله فقدم له الجميع الطاعة والذخيرة .وبعد أن نظم أحوالهم وطيب خواطرهم توجه الى أرض الشغر وطالب أهالى العمق وبيلان بالذخيرة . فقدموها وحضر إلى عنده والي حلب وطلب صفو خاطره وقدم له ثلاثين ألف ذهب وألف حمل ذخيرة لينكف عن حلب، فأكد الامير للحلبيين أنه لا ينوى أذيتهم بل يكتفى بحوالى النصارى، فقدموها له . ثم عاد الى حماه ونادى بالامان فقدموا له خمسين ألف غرش .

ولما طلب الذخيرة من عرب الأمير مدلج أطاعوه ، أما الذين كانوا من هوى الامير فياض فرفضوا . فركب عليهم بالخيل سلط وما زال يطاردهم ثلاثة وعشرين يوما حتى قطعهم النهرين . ثم أخذ فى عمار قلعة شمال قلعة الشماميس الحلبية وأخرى فوق انطاكية . ولم ينتقل حتى أتمهما . ثم عاد إلى بعلبك ورمم القلعة وجهزها بالرجال والذخيرة . وارتحل إلى بر الياس حيث هدم حارة صهره حسين بن يونس حرفوش لأنه خانه . وانتقل من هناك إلى وادى التيم حيث قدم له آل شهاب الذخيرة . ورحل الى بانياس واستقام يعمر القلعة . وجمع الذخيرة من بلاد القنيطره وقرايا الشام .

وانقطع البر من الشام فصار غلاء . فاستصرخه أهلها فبعث إليهم من حوران بألف جمل محملة قمحاً . فخرجوا لملاقاته ، ودعوا له بالنصر . ثم جاء الى دير القمر وأمر باصلاح السرايا . وعاد الى بيروت .

وهكذا تسنى لبطلنا بجرأته وحسن ادارته وسياسته أن يصبح سيد سوريا وفلسطين وشرق الاردن فضلا عن لبنان . وأنه لامر فريد فى التاريخ ، إذا استثنينا جده فخر الدين الاول، أن يأتمر واليا دمشق وحلب بأمر أمير لبنانى .

ولننظر الآن فى سياسته الخارجية مع الدول الغربية .

الباب الخامس

سياسته مع دول فرنسا واسبانيا ومالطه

١ — سياسته الخارجية

ضاق الشرق عن نشاط فخر الدين السياسى . فتطلع إلى الغرب ، لان الميدان الشرقى على سعته ، لم يكن كافياً لمراميه الوطنية البعيدة ، لسيطرة الدولة للعثمانية عليه .

كان عالماً أن العبرة ليست فى إنشاء دولة عظيمة تضم سوريا وفلسطين وشرق الأردن وجزءاً من الأناضول إلى لبنان فيصبح هذا الجبل الاشم قلبها النابض ومعقلها المنيع ، بل العبرة كلها فى تأمين هذه الدولة بكيانها ورفاهيتها من جور آل عثمان وتقلبهم .

لما استولى فى السنة ١٥٩٣ على صيدا ، ميناء فنيقيه الشهير ، انفتحت أمام بصره الحاد نافذة مطلة على المحيط اللازوردى ، الذى يصل أوربا المسيحية بالشرق العثمانى . ففكر بأن يعيد إلى أمراء الغرب مملكتى أورشليم وقبرص الصليبيتين فيضع فى جانبه حلفاء امناء أقوياء ، يؤمنون فتوحاته براً ، ويحمون شواطئه بحراً ، ويجهزون جيشه بالأسلحة الحديثة ، فيتسع له الوقت لانشاء أسطول لبنانى ، يجعله سيد ذلك البحر ، بعد أن أصبح هو سلطان البر . هذا فضلا عن الفوائد الأدبية والمادية التى يجنيها من محالفة تلك الشعوب الراقية . فيترقى شعبه فى العلوم وفى الاقتصاديات زراعة وصناعة وتجارة . هذه الفوائد لم تخف على عقله الراجح فعمل منذ اعتلاء عرش أجداده على الوصول اليها لمصلحة وطنه وأسرته . لذلك نجده منذ اتصاله بالأوربيين محتفياً بهم ، متودداً اليهم ، مساعداً لهم فى مهماتهم . كان واياهم قلبين يتفاهمان ويتحاباخ لأول لقاء . وكان مخلصاً فى صداقته كما تشهد المعلومات التاريخية الواصلة الينا .

مال إلى الموارنة وحالفهم وساعدهم فى نهضتهم القومية والدينية ، فضمن مساعدتهم على يوسف سيفا باشا عدوه وعدوهم ، ووساطتهم لدى الكرسى الرسولى وعواهل أوربا . عطف على الأوربيين وخاصة على مرسليهم ، فاكتسب محبتهم واعجابهم ومؤازرتهم ، وصداقة

أمرائهم وملوكهم ، الذين أسرعوا فعرضوا عليه خدماتهم . بادلهم بارتياح الخدمات والصداقة وحالفهم على آل عثمان أعدائه وأعدائهم . وقد صرح لهم لما كان ضيفاً على دوق تسكانا «انه لم ينقطع يوماً عن العطف على المسيحيين واحترامه لهم وانه مستعد أن يبذل فى سبيل العهود التى قطعها لهم ماله ورجاله وملكه وحياته » .

إنما كان يستحيل عليه أن يضع ثقته كلها بجميعهم على السواء. لقد اقسم بالثأر من بنى عثمان والسعى إلى خلع نيرهم وكسر شوكتهم ودك عرشهم . فهل يأمن على غرضه جانب الدول الأوربية حليفاتهم ، مثل فرنسا وانكلترا والبندقية وهولندا ؟ فكان طبعاً أكثر ميلا إلى الدول المعادية لآل عثمان ، مثل تسكانا والكرسى الرسولى واسبانيا ومالطه وهنغاريا .

ومع ذلك فقد عامل بالحسنى رعايا الجميع ، ولم يهمل صداقة أحد منهم ، وحذق الاستفادة من جميعهم أدبيا وماديا وسياسياً .

ولنستعرض الآن علاقاته بهذه الدول :

٢ — فرنسا

كانت علائق الأمير بفرنسا بادىء ذي بدء مخاصة ، لكونها أمة مسيحية كاثوليكية ، ولصلة القربى بين أسرتها المالكة وعاهل تسكانا حليفه . لان مارى مديثى زوجة هنري الرابع ووصية عرش فرنسا كانت ابنة اخ صديقه فردنان الأول غراندوق تسكانا . فكان يظن ، ولعله مصيب فى ظنه، ان محالفة فرنسا لآل عثمان وليدة المصلحة . ففى السنة ١٦٠٨ لما جاءه هيبوليت ليونسيني Lionciny مندوب الغراندوق المذكور ، ليعقد معه معاهدة حربية ، رضي الأمير بأن يحضر قنصل صيدا الفرنسوي جلساتها السرية، وذهب إلى تكليفه قراءة رسالة الغراندوق وتعريبها. ولما أكد له السفير التسكاني رغبة مولاه وملك اسبانيا فى شد ازره بحملة حربية تحتل الأراضى المقدسة ، نهض القنصل المذكور وجاهر باسم ملك فرنسا باستعداده هو أيضا لمشاركتهم فى هذه الحملة .

وفى السنة ١٦١٣ اصطحب هذا القنصل معه إلى تسكانا . وكان يطلعه على أسراره ويشركه فى المخابرات الدائرة بينه وبين الغراندوق . وفي السنة ١٦١٤ كتب الأمير إلى ده بريف De Brèves سفير فرنسا لدى الكرسي الرسولى يسأله التوسط لدى الحبر الأعظم فى مشروع استعادة ولايته ، ويذكره بتحدر الدروز من بقايا الفرنسويين الصليبيين المتأخرين

فى الشرق، وبأن الأسرة المعنية من سلالة الملك غودفرواده بويون Godefroy De Bouillon فاتح القدس .

واستكتب وهو فى تسكانا الحاج كيوان رسالة إلى ملك فرنسا يخبره بأمره ويستأذنه فى مقابلته ليصلح حاله مع السلطان . غير أن الملك أبى استجابته . فتأثر الأمير من رفضه وتخلص من قنصل فرنسا الذى كان فى معيته . وفى السنة ١٦١٨ لما نال الأمير من السلطان العفو واذن له فى الرجوع إلى ولايته ، عاد اليه القنصل المذكور وهو فى نابولى برسالة من ملك فرنسا يدعوه فيها إلى بلاطه ليتعرف اليه ويوصى به السلطان خيراً . فاعتذر الأمير ، بالرغم من خلافه مع حاكم نابولى وشدة ضيق ذات يده .

وفى السنة ١٦٢٣ كان قنصل فرنسا فى صيدا ممتعضاً من تعلق الأمير بعاهل تسكانا ومساعدته رعاياه وترويجه تجارة بلاده ، فجاهد فى تحويله عن الغراندوق إلى مولاه عارضاً عليه خدماته مبيناً له سطوته وثروته ونفوذه . فاجابه الأمير ببرود « انا مستعد دائماً لخدمة جلالته » .

ومع ذلك لم ينقلب الأمير على الفرنسويين المقيمين فى مملكته . بل كان يحميهم ويراعي مصالحهم طبقا لخطته العامة . وقد شيد لهم فى صيدا خان الفرنج حيث كان يقيم قنصلهم وكاهنهم وتجارهم . وفى السنة ١٦٢٠ لما سأله قنصلهم تاركيز Tarquez الاذن للآباء الفرنسيسكان الفرنسويين فى سكنى الناصرة وتجديد بيت العائلة المقدسة، استخرج لهم فتوى شرعية بذلك ورافقهم حتى الناصرة ونقدهم مالا لاقامة المعبد وأوصى بهم سكانها خيراً .

وفى السنة التالية اذن للآباء اليسوعيين الفرنسويين فى سكنى الناصرة نزولا عند طلب البارون دهاى Deshayes سفير فرنسا الغير العادى . وفى السنة ١٦٢٢ سمح للآباء الكبوشيين الفرنسويين بانشاء الرسالات فى لبنان استجابة لسؤال سفير فرنسا فى الاستانة . وكان ملك فرنسا لا يفتر عن مكاتبته وتوصيته برعاياه وقد نفحه بلقب « الأمير الكلى الشرف والسطوة، المحفوظ للصدر الأعظم .

٣ — اسبانيا

ليس لدينا معلومات تستحق الذكر عن علاقات فخر الدين ببقية الدول الاوربية حليفة تركيا ، مثل انكلترا وهولندا والبندقية . والقليل الذى

عرفناه خال من الصفة السياسية ، وعائد إلى مراعاته تجار هذه الدول ، مما لا يخرج عن خطته الرشيدة فى هذا الصدد .

أما علاقاته بدولة اسبانيا ، أقوى دولة أوربية فى ذاك العهد ، فكانت سياسية أكثر منها تجارية ، وما اتصل بنا منها يدل على أهميتها . فقد سبقت اسبانيا بقية الدول الغربية فى عرض خدماتها عليه ، واهداء الذخائر والاعتدة الحربية إليه . وضافته ثلاث سنين فى صقلية ونابولى ، ورسمت معه خطوط معاهدة ترمى الى احتلال الاراضى المقدسة .

ان وقوف فخر الدين ، سنة ١٦٠٦ فى جانب على باشا جانبولاد ، المتمرد على الدولة العثمانية ، لفت اليه أنظار عواهل أوربا المناوئين لهذه الدولة والطامعين فى أملاكها ، خاصة الاراضى المقدسة وجزيرة قبرص . فأخذوا يخطبون وده ويعززونه بأحدث طراز من الاسلحة ؛ ويعرضون عليه أساطيلهم وخبراءهم ، لنيل أربه وأربهم من تلك الدولة .

فحوالى السنة ١٦٠٧ أهدى إليه نائب الملك الاسبانى فى نابولى مجموعتين من المدفعية وكمية من البنادق وغير ذلك من المهمات الحربية . وعرض عليه ملك اسبانيا أن يشيد له حصناً منيعاً فى ميناء صور وأن يضع تحت تصرفه ما شاء من الرجال ومن القوى البحرية .

ولما رآه قد لجأ فى السنة ١٦١٣ الى غراندوق تسكانا داخلته الغيرة ، وما زال حتى استدرجه الى صقلية التابعة وقتئذ لتاجه ، حيث استقبله نائبه فى ميناء مسينا استقبال الملوك وأنزله قصراً فخما مشرفا على البحر ، وعين له معاشا يومياً . ولما وقف على رغبته فى زيارة لبنان ، ورأى أن هذه الرحلة توافق غرضه من تحويل الاسطول العثمانى عن شواطىء صقلية وكالابريا ، قدم له غليوناً من مراكبه الحربية واستبقى أسرته لديه . فتسنى للأمير رؤية بلاده والاطلاع على تحسن حالتها على أثر مصرع نصوح باشا خصمه . وعاد بعد سبعة أشهر الى بالرمو حيث انتقلت أسرته بانتقال النائب إليها . ولما تبين أطوار هذا النائب الشاذة ، وفهم أن غايته الاستعانة به على اقتطاع سوريا وفلسطين ولبنان لدولته تخلص منه بالحسنى وعاد الى بلاده شاكراً ضيافته وحمايته .

وفى السنة ١٦٢٣ تلقى من الدرق البوكركى Albuquerque نائب ملك اسبانيا فى صقلية ، رسالة ودية تتضمن مشروع مؤامرة على تركيا حملها اليه رسوله الخاص . فأجابه

موافقا على مشروعه واهدى إليه اثنين وثلاثين أسيرا مسيحيا أكثرهم من الاسبانيين . وفى السنة عينها أوفد الأمير المطران جرجس بن مارون الأهدنى سفيرا لدى الكرسى وغراندوق تسكانا للاتفاق على تخليص الأراضى المقدسة ، وأوعز اليه أن يعرج فى عودته على ملك اسبانيا . وفى السنة التالية أعاد الأمير سفيره المذكور إلى أوربا لكى ينهي المحالفة مع عواهلها وخاصة عاهل اسبانيا لاحتلال الأراضى المقدسة وكسر شوكة العثمانيين .

وفى السنة ١٦٢٨ رجع إليه موفد الدوق البوكركى برسالة منه سر بها السرور كله لأنها أنبأته بالاستعداد الجارى للحملة المنشودة . فكتب له سرأ فى الليل بخط يده . وأخبره بانكسار العثمانيين أمام الفرس وخسارة نصف بلادهم ، وان أعباظه باشا الثائر قتل من جنودهم ماينوف عن أربعين ألفاً . وانه هو قد أخذ منهم حصارات وقلاع كثيرة وان ليس للأتراك عمارة الآن تجول فى البحر . وأردف بقوله « أما نيتنا فلا تتغير والكلام الذى يبلغكم إياه رسولكم معقول . فاعلموا به مولاكم ، وبعد هذا الكلام ما لكم عتب علينا » .

٤ — مالطة

جاء الاستقبال الحافل ، الذى أعده للأمير فرسان القديس يوحنا أصحاب جزيرة مالطة ، لما مر بها فى السنة ١٦١٦ فى عودته من لبنان إلى ايطاليا ، دليلا على شهرته الواسعة فى الغرب ، وعلى علاقاته السابقة بهم . فقد أنبأنا الأب روجيه « أنه كان يسمح لقرصانهم بأن يلجأوا إلى موانئه وأن يستفكوا الأسرى المسيحيين ، ويعيدوهم إلى أوطانهم على متن سفنهم » .

وقد وصف كاتب رحلة الأمير الى ايطاليا هذا الاستقبال بقوله « وأرسلوا عزموا الأمير على النزول عندهم . فارسلوا له قايق مخيم بالحريز وصفوا له أكابر الناس من البحر إلى قصر كران مايسطرو حاكم مالطة . ولما طلع ضربوا له جميع المدافع فى القلعة والأسوار . ولما وصل إلى عند الحاكم لاقاه ورحب به ، وبقى عنده ثلاثة أيام بالاعزاز والاكرام . ونزهوه وفرجوه على خندق المدينة الذى عملوه جديد ، وهو عظيم فى العمق والوسع . وفرجوه على الماء الذى جلبوه للبلد من موضع بعيد ، وعلى الجبخانة المغطية لأن لها خدام يخدموها ومع كبرها ما فيها شيء من الصدأ من هواء البحر . وعاملين طواحين الهواء . وطلبوا من الأمير أن يعملوا له ضيافة فى بستان كران مايسطرو لأنه من عجايب الدنيا فامتنع لئلا يصير لهم كلفة زايدة ولا طولة . وودعهم واستكثر بخيرهم ونزل للغليون . فأرسلوا له على

نوع الزوادة من الغنم والدجاج والملبسات والمحليات ومن البهارات والخبز والخضار شيء زايد »

ولا يعقل أن يمضى هذا الاستقبال الملكى دون أن يخلق أو يدعم صلات متينة بين الأمير وهؤلاء الفرسان . لا سيما أن غايتهم من مشاكسة آل عثمان وخضد شوكتهم كانت مطابقة لغايته . وهذا ما يفسر لنا سماحه لسفنهم باللجوء إلى موانئه وتمون الزاد والماء منها واعتاقه أسراهم . ويقول الأب روجيه أن صلاته بقواد قرصان مالطة وليفورنو كانت من أكبر الشكايات التى قدمت عليه للباب العالى سنة ١٦٣٣ . وروى المذكور عن الأمير أنه عقد النية قبيل هذه النكبة على تسليم ابنه منصور ومليوناً من الفرنكات الذهب إلى قائدين من فرسان مالطة ، كان مركباهما راسيين فى ميناء حيفا ، لايصالها إلى غراندوق تسكانا .

الباب السادس

الكرسى الرسولى

ان ميل فخر الدين الى المسيحيين واحترامه اياهم ، واعجابه برقيهم واستقامتهم وعدالة أمرائهم ونظام ممالكهم ، والفائدة الأدبية والسياسية التى كان يرجوها لوطنه من صداقتهم ومحالفتهم ، حملته على وضع ثقته وآماله بدول أوربا المسيحية القوية ، الغنية ، عدوة آل عثمان الطبيعية . فضلا عن اعتقاده بتضامنها فى طموحها إلى الأراضى المقدسة تحت رئاسة رئيسها الروحى الأعلى . وكان يحل الحبر الاعظم مكانا سامياً من الاعتبار ويعتقد بنفوذ كلمته على جميع الدول النصرانية . وقد وصفه فى كتاب وجهه فى السنة ١٦١٤ الى ده بريف سفير فرنسا لدى الفاتيكان بذلك « الشخص العظيم ، الذى يطيعه الامراء والملوك والاباطرة وينطرحون على قدميه خاضعين لادنى اشارة تصدر منه . ذلك الإله الارضى صاحب السلطة العليا ، الفريدة على الارض »

فان توصل بواسطة الكرسي الرسولى أن يستدرج قوى أوربا الى الشرق أمن على مملكته من الخطر العثمانى ، الذى كان يهدد كيانها .

أما الكرسى الرسولى فكان من جهته يقدر للامير حمايته للمرسلين خاصة وللمسيحيين عامة ، لا سيما الموارنة ، كاثوليك الشرق الوحيدين فى ذاك العهد . وقد أصبحوا همزة الوصل بين الامير والبابا وأمراء الغرب . فكان الاحبار الاعاظم يجتهدون بأن يوطدوا عقيدته بسلطتهم العليا ، ولا يدعون الفرصة تفوت دون أن يظهروا له شكرهم وعطفهم على مهمته السياسية ، ساعين لدى الامراء ، الذين تبقى لهم عليهم بعض النفوذ السياسى ، كعاهلى تسكانا واسبانيا ، على شد أزره فى مشروعه .

وهاك كلمة وجيزة فى هذه المساعى .

١ ـ بولس الخامس

كانت رابطة فخر الدين بالكرسى الرسولى متصلة بروابطه مع دولة تسكانا ، فتمشت معها ثم تطورت وتوثقت .

كان الكرسى الرسولى قد حرم على عواهل النصرانية تصدير الأسلحة إلى الشرق ، خوفا من أن تنتفع بها الدولة العثمانية . لكن بعد أن سمح اكليمنضوس الثاني وبولس الخامس لغراندوق تسكانا ولملك اسبانيا باهداء الأسلحة إلى فخر الدين وإلى حليفه على باشا جانبولاد وجه بولس الخامس سنة ١٦٠٩ ، بناء على طلب الغراندوق ، كتاباً خاصاً إلى الأمير لقبه فيه « بقائد الدروز النبيل ، وأمير نيقوميدية وفلسطين وفنيقية » ، وأرفقه بهدية « عربوناً لحبه وشكراً له على العطف الذى يبـــديه نحو المسيحيين ، وخاصة الموارنة » . وأكد له استعداده لتأييده ضد عدو الفريقين » . وختم « سائلا المولى هدايته الى طريق الحق »

وكتب أيضاً فى السنة ١٦١٠ الى البطريرك المارونى يوحنا مخلوف ، معرباً له عن سروره من أن « فخر الدين الامير القدير الباسل المنحدر من قواد أورشليم ، وعدو الأتراك اللدود يواصل حمايته له ولملته » . حاثاً إياه « أن يرعى صداقته ويقف هو وشعبه فى جانبه ، ليتمتع بحمايته ، ويساعده على تخليصه وأمته من ظلم الأتراك ، ويجتذبه إلى يسوع المسيح »

بلغت هذه الكلمات الرقيقة الامير فى الوقت الذى كان الباب العالى يجهز عليه حملته ففكر أن يتصل رأساً بالكرسى الرسولى ، اعتقاداً منه أن عهداً يقطعه له صاحب هذه السلطة

العليا ، يربط أوربا بالمسيحية كلها . وكان البطريرك الماروني يوحنا مخلوف قد استقر فى بجدل معوش تحت حماية الامير . ولما اقترب بزيارته الرعائية من صيدا استدعاه الامير اليه وفاتحه بهذا الكلام « سمعت أن فى رومية أميراً تخضع له أمراء وملوك كثيرون ويلبون أدنى اشارة تصدر منه . انظر اذا كان راغبا فى الاراضى المقدسة ، فقد أقسمت واقسم أنى أقدم له موانئى وأشد ازره بكل قواى ضد الاتراك » . فوضع البطريرك تحت تصرفه المطران جرجس بن مارون الاهدنى . فأوفده الامير فى السنة ١٦١١ الى ايطاليا للاتفاق مع الكرسى الرسولى ودولة تسكانا على هذا المشروع الخطير .

وفى السنة ١٦١٣ لما قصدت الحملة العثمانية الى لبنان أبحر فخر الدين قاصدا الى رومية . بيد أن الرياح حملته الى ميناء ليفورنو Livorno بدلا من شيفيتا فكيا Civita Vecchia ميناء الدولة البابوية . وما استقر به المقام فى فلورنسا حتى كتب الى بولس الخامس يطلعه على مشروعه ويقدم نفسه لخدمته . بيد أن قلب هذا الحبر الكبير كان مفعما حزناً لانقسام الملوك المسيحيين على بعضهم . فاستصوب تأجيل الحملة «فهى ان لم تكن كفؤا لسحق عدو قدير بعيد كالاتراك ، لا تجدى سوى احراج صدورهم على المسيحيين » .

٢ ــ أوربانس الثامن

ولما تم لفخر الدين انجاز الوحدة اللبنانية والتبسط فى سوريا وفلسطين وأصبح على قاب قوسين من أورشليم ، أوفد سنة ١٦٢٣ المطران جرجس مارون المذكور إلى أوربانس الثامن يهنئه بانتخابه ويعرض عليه مشروع « تخليص الشرق » . فاكتفى الحبر الاعظم بتوصية ملك اسبانيا بسفير الامير .

وفى السنة التالية ١٦٢٤ كتب الامير اليه رأساً حاثاً إياه على السعى فى الاستيلاء على الاراضى المقدسة لتضعضع الدولة العثمانية . ووضع تحت تصرفه جيشه « الذى برهن على مقدرته بانتصاراته الاخيرة » . وعرض عليه أن يقصد بنفسه الى رومية لترتيب الحملة وقيادتها . واستكتب بهذا المعنى البطريرك يوحنا مخلوف الماروني والشيخ أبا صافى الخازن الذى ولاه جبة بشرى .

فاهتم أوربانس الثامن للامر وأوفد الاب توما من نوفارا حافظ القدس السابق ليفاوض دوق تسكانا بهذا الصدد . على أن التنافس والتحاسد بين أسرتى مديشى وبربرينى

أسرتي الغراندوق والبابا شل المشروع فى ولادته . فأجاب أوربانس الأمير فى ٦ ايلول سنة ١٦٢٥ مهنئاً اياه على انتصاراته « التى واصل بها حروب الصليبيين أجداده » وأفهمه بلطيف العبارة ، أن أحوال أوربا المضطربة لا تسمح بالسعى وراء مشروعه النبيل . وكتب أيضاً إلى البطريرك المارونى « مبدياً أسفه لعجزه عن انتهاز الفرصة المواتية التى عرضها عليه أمير غير مسيحى ، جعل بلاده ملجأ لمسيحيي الشرق من عواصف الأتراك الهوجاء » .

وفى السنة ١٦٢٧ عاد الأمير فأوفد المطران جرجس بن مارون نفسه لعله يفلح هذه المرة . فقرر الكردينال فرنسيس بربريني ابن أخي أوربانس الثانى ايفاد حملة استكشاف إلى لبنان تقف على حقيقة نيات الأمير وعلى قوته الحربية وتتفهم تفاصيل مشروعه .

وكلف المطران جرجس بن مارون تقديم هداياه وهدايا البابا ، وأرسل الحبر الأعظم إلى كل من الشيخ أبي نادر الخازن « قائد جيش الأمير » والشيخ أبي ظاهر حبيش « خازنه » ، درعا وسيفاً مكرسين . وكتب البابا إلى البطريرك يوحنا مخلوف فى ٢٥ تشرين الثانى سنة ١٦٢٨ مظهراً أسفه « لعدم امكانه انتهاز هذه الفرصة الثانية التى قدمها الأمير عن كرم نفس ، لتخليص أمته والأراضى المقدسة ، على أنه لم يفقد بعد الأمل بأن يتمكن الأمير يوما أن يقوم وحده بهذا المشروع » .

٣ ـ اتفاق السنة ١٦٣٤

لما عادت العمارة العثمانية عن لبنان فى خريف السنة ١٦٣٣ أرسل الأمير نداء أخيراً إلى دول أوربا لتنقذ لبنان والأراضى المقدسة والنصرانية من شر هذه الحملة . واستحث المطران جرجس مارون على السعى فى التوفيق بين أسرتي مديشي وبربريني مقترحا « إذا نجحت الحملة ، أن يتوج غراندوق تسكانا ملكا على أورشليم وتادى بربريني ابن أخي البابا أميراً على قبرس . ووعد الأمير « باشهار نصرانيته وتعميد أسرته وذويه ، وحمل أمته وحلفائه على الاقتداء به » . فتصبح دولة لبنان معقلا للكثلكة فى الشرق وحليفة مخلصة للملكتين الحديثتين . وتعهد الأمير أيضا « بتقديم المؤن والرجال لشد أزر الجيش المسيحى ، ووضع موانئه ومقدراته تحت تصرفه ، وتسليم أورشليم إلى الغراندوق يداً بيد . على أن يبعثوا اليه بحاجته من الأعتدة والذخائر الحربية وعلى الأخص المدفعية . واسطولا مؤلفاً من زهاء خمسين قطعة يحتل جـــزيرة قبرس ليحمى السواحل اللبنانية . وهو يتكفل أن يقف وحده فى البر بوجه جميع القوات العثمانية » .

ويظهر من الوثائق التي طالعناها ونشرنا بعضها في الجزء الأول من كتابنا عن فخر الدين أن السفير نجح هذه المرة باقناع البابا والغراندوق على العمل جدياً للشروع . بيد أن التجهيزات عاقت وصول الحملة إلى لبنان في الوقت المناسب . أما الامير فلما مل الانتظار ووهنت عزائمه لمصرع ابنه الامير علي في هجوم جنوني قام به على الجيش العثماني ، مال إلى شور بعض عظمائه واتفق مع أحمد باشا كجك قائد الحملة وربيبه على مال جزيل وتسليم قلعتي صيدا وبيروت . بيد أن هذا الخائن بعد أن تسلم المال والقلعتين قبض على سيده وعلى ولديه في خريف السنة ١٦٣٤ عينها ، وقادهم إلى الاستانة حيث قطع رأس الأمير في نيسان سنة ١٦٣٥ وقتل أولاده ونساؤه .

فهرب الشيخ أبو نادر الخازن إلى رومية واستغاث بالكرسي الرسولي ليسعى في تخليص الأمير ملحم ابن أخ فخر الدين ، والمقـــدمين أبي اللمع أصهاره . فحمل الكرسي الرسولي الغراندوق على ايفاد مركب حربي إلى لبنان لهذا الغرض . بيد أن استعادة الامير ملحم حكم عمه بالقوة ، أوقف المساعي التي تجددت في ايطاليا لشد أزر آل معن .

وفي السنتين ١٧٣٢ و ١٧٣٣ ، بعد مضي قرن كامل على هذه الفاجعة ، بذل الكرسي الرسولي الجهود والنفقات لتحصيل مال أودعه فخر الدين في السنة ١٦٣٢ مصرف الرحمة بفلورنسا باسمه واسم ورثته . وكان قد بلغ آنئذ أربعة عشر ألف سكوت .

فالكرسي الرسولي عمل ما بوسعه في سبيل الأمير وورثائه ، ولولا حرب الثلاثين سنة التي نشبت في ذاك العهد بين ملوك أوربا لتكللت مساعيه بالنجاح ولتغير وجه الشرق وتاريخ العالم .

الباب السابع

تسكانا

علاقات فخر الدين بدولة تسكانا كانت أوثق علاقاته السياسية والتجارية بدول أوربا ، واخلصها وأوفرها فوائد .

١ — فردناند الأول — حاول فردناند الأول منذ السنة ١٦٠٢ أن يفتح فى طرابلس اللبنانية سوقا للمنتوجات التسكانية . فذهبت جهوده عبثاً لجشع ابن سيفا . وفى السنة ١٦٠٥ أشار عليه المدعو رفائيل كاتشياماري Cacciamari البندقى أن يحالف فخر الدين ، موكداً له أن صداقته مفتاح سوريا والقدس وقبرس ، التى كان الغراندوق يطمح اليها .

وفى السنة ١٦٠٦ لما عصى جانبولاد الدولة العثمانية واستولى على ولاية حلب أرسل الغراندوق اسطولا احتل ميناء أياس فى شمال سوريا شداً لازره . ثم عقد معه معاهدة حربية وتجارية وجهز اسطوله لاحتلال ميناء فاماغوستا فى جزيرة قبرس . ولما فاتح فخر الدين بمشروعه وعده الأمير ان هو نجح فى احتلال ميناء فاماغوستا أن يساعده على ضم بقية الجزيرة اليه وعلى الاحتفاظ بها . لانه يعد جواره ضماناً لنفسه . فاوفد الغراندوق اسطوله لاحتلال الثغر المذكور إنما فشل لقلة استعداده . ولما غلب جانبولاد على أمره صحت عزيمة الغراندوق على ايفاد بعثة تعقد محالفة مع فخر الدين . فحمل فى السنة ١٦٠٨ سفيره هيبوليت ليونسيني رسالتين للأمير وللبطريرك المارونى واصحبهما بألف بندقية على سبيل الهدية . ومع أن الأمير كان قد اصطلح مع الباب العالى فقد استقبل البعثة ، تحت ستار مساومتها على ابتياع أسرى تسكانيين ، وعقد معها جلسة سرية صارحها فيه بعزمه على مواصلة سياسة العداء للدولة العثمانية ، وأكد مقدرته على احتلال دمشق والقدس . بيد انه طلب للاحتفاظ بهما أولا أن يضع الغراندوق تحت تصرفه خبيراً فى صب المدافع . ثانيا أن يستفك الأسرى التسكانيين الثلاثة لمعرفتهم التامة بقلاعه . وهى إذا جهزت بالذخائر

والمدافع والمؤن صمدت أمام جميع قوات الاتراك . ثالثا أن يستصدر من الحبر الأعظم براءة يأمر فيها موارنة لبنان أن يحاربوا تحت لوائه . رابعاً أن يضع تحت تصرفه فى ميناء صيدا مركبين يستخدمهما فى تبادل البعثات والرسائل . خامسا أن يزوده بتذكرة مرور . ليتسنى له الركوب إلى تسكانا للاتفاق معه شفهاً على هذا المشروع الخطير . فلبى الغراندوق مطالبه ووضع تحت تصرفه قسما من اسطوله وفاز له من البابا بولس الخامس ببراءة حرض فيها الموارنة على المحاربة فى جانبه .

وقد روى الرحالة سانديس الذى زار لبنان فى السنة ١٦١٠ اشاعة استعداد السلطان لمعاقبة فخرالدين على عصيانه وغزو جيرانه ولاسيما على علائقه بعاهل فلورنسا التى انفضحت. لانه يسمح لاسطوله ومراكبه باللجوء إلى ميناء صور والتموّن منها بالماء والزاد. واستطرد يقول « أن هناك مؤامرة خطيرة بين الأمير والغراندوق إذا عرف المسيحيون اغتنام فرصتها أصيبت الامبراطورية العثمانية بهزة عنيفة تفكك أوصالها » .

٢ — قزما الثانى — فى السنة ١٦٠٩ التى توفى فيها فردناند الأول أرسل ولده قزما الثانى وخلفه إلى الأمير اسطولا محملا هدايا من البنادق ومعدات القلاع ومواد متفجرة وغير ذلك . مع رسالة أكد له فيها « نيته على مواصلة علائق الصداقة التى كانت تربطه بابيه » .

وفى السنة ١٦١١ أوفد الأمير سفيره المطران جرجس مارون الأهدني إلى قزما ليحالفه على الدولة العثمانية .

وفى السنة ١٦١٣ لما ضايقته الحملة العثمانية براً وبحراً رأى أن يتفادى محاربة السلطان فاقلع مع ذويه لاجئاً إلى قزما الثانى . فاستقبله بكل ترحاب وسعى له لدى الكرسى الرسولى ودولة فرنسا وملك اسبانيا ونائبه فى صقلية ونابولى فى تجهيز حملة تعيده إلى مملكته وتحتل الأراضى المقدسة وقبرس . وجهز مركباً أوسقه بالاسلحة والذخائر لتموين جيشه وتشجيع ذويه للثبات على ولائه ، مع بعثة فنية لاستكشاف قلاعه وموانئه ومقدراته . ولما عادت البعثة ورأى أن الخلاف بين عواهل أوربا يلهيهم عن مساعدة الأمير اظهر استعداده للقيام وحده بالحملة . فاشار عليه الأمير بالعدول عن المجازفة والاكتفاء بمركب يعيد فيه حاشيته إلى لبنان تخفيفاً عن كاهله . فعين له الغراندوق قصراً فخما فى فلورنسا لنزوله مع اسرته ،

والى سكوت راتباً شهرياً لنفقته ، وقدم له عربة وخيلا لوحاته وجيئاته ونزهاته وعين للحاج كيوان مستشاره منزلا فى مونتيكاتينى . ثم وضع تحت تصرف الأمير مركباً أعاد فيه اغلب حاشيته إلى لبنان مع كمية من الاسلحة والذخائر الحربية .

وفى صيف السنة ١٦١٥ لما عزم الأمير على الانتقال إلى صقلية ودعه الغراندوق وداعاً رقيقاً وأوصله بغلايينه حتى ميناء مسينا . وأوصى به حاكمها خيراً .

٣ ـ فردناند الثانى ـ جنى فردناند الثانى ثمرة الخدمات التى قدمها جده ووالده للأمير فامتازت علاقاته معه بتبادل متواصل من الرسائل والهدايا والمنتوجات والبعثات فى حقول التجارة والعمران والسياسة .

أولا — العلاقات التجارية — توفى قزما الثانى سنة ١٦٢١ ولم يكن ابنه فردناند الثانى قد بلغ الحادية عشرة . فوضع تحت وصاية جدته الغراندوقة كرستينا ارملة فردناند الأول بنت دوق لورينا ، ووالدته ماريا ارشيدوقة النمسا . وفى السنة ١٦٢٩ بينما كان مجلس الوصاية التسكانى يتحاشى الاشتراك فى البعثة التى جهزها الكردينال فرنسيس بربرينى إلى لبنان ، زودت الغراندوقة تاجراً من رعاياها بتوصية إلى فخر الدين لتصريف بعض المنتوجات التسكانية واستجلاب القمح والحبوب التى كانت أوربا بحاجة شديدة اليها لحرب الثلاثين سنة . فساعده الأمير على شحن مركبين قمحاً مع حظر الباب العالى استصدار الحبوب وسلمه ثلاث بالات حرير هدية للغراندوقة مرفقة برسالة كتب فيها « ان سرورى بورود كتابك لايفوقه سرور فى هذه الدنيا . لو ان محصولى من القمح جاء كالسنين الماضية لملأت المركبين بلا ثمن » .

شجعت هذه المعاملة الحسنة تجاراً آخرين من التبعة التسكانية فاخذوا يقصدون الموانىء اللبنانية بمنتوجات بلادهم ، ويعودون منها بالحرير والزيت والقطن والحنطة والارز والفول ، وشتى الحبوب . واعطى مجلس الوصاية قيادة أحد المراكب للمدعو البارون دلالجره De la Legre ليتسنى له تحت ستار هذه الوظيفة الذهاب إلى لبنان والاياب منه لخدمة مصالح الفريقين ويكون همزة الوصل السياسية بينهما . وكتبت الغراندوقة للأمير تشكر له عنايته برعاياها واهدت اليه وإلى زوجته خاصكية التى كانت معه فى تسكانا عدة تحف وأرسلت اليه أيضاً الأرشيدوقة ارملة قزما الثانى علبة من العقاقير كان الأمير قد كلف

البارون شراءها له . فأجاب الامير فى ١٠ اذار ١٦٣٠ شاكراً على الهدايا وأهدى بدوره إلى السيدتين اثنتى عشرة بالة من الحرير اللبنانى وكتب إلى الارشيدوقة يؤكد لها أن ذكرى زوجها قزما الثانى تحيا فى قلبه إلى الأبد وأنه بغاية الاستعداد لخدمة مصالح ابنها ، وفاتحها برغبته فى تعيين قنصل تسكانى لديه فى صيدا ، يستعين به على مجاوبة أفكارها ورغائبها ،

فأوسق مجلس الوصاية خمسة مراكب بأصناف الأقمشة والحرائر والأجواخ التسكانية مع كمية من البارود والرصاص والأسلحة ، ومبلغ من نقد ضرب برسم الغراندوقة لتصريفه فى لبنان وسوريا بربح ٢٥ فى المئة . واصحب المراكب بغليونين لحمايتها . وعين القائد فرنسيس ده فراتسانو Da Verrazzano الذى كان فى خدمة الامير قنصلا دائماً فى صيدا . واصحبه بكمية من الرصاص أهداها الغراندوق إلى الامير وبسبعة طرود من شتى التحف قدمتها الغراندوقة .

فاستقبل الامير القنصل بحفاوة وأنزله جناحاً من قصر ابنه على بصيدا وساعد على تصريف البضائع المرسلة بأسعار حسنة وعلى شحن المراكب قمحاً وأرزاً . وأرسل عشرين بالة من الحرير هدية إلى الغراندوقة وزوجاً من أصائل الخيل إلى الغراندوق منها حصان ألبسه عدة شرقية مزركشة بالقصب والحجارة الكريمة وأربعة من جياد الكلاب إلى الأرشيدوقة التى كانت مولعة بالصيد .

وكتب يطلب خبراء يستعين بهم على الأعمال العمرانية التى ينوى القيام بها . أى طبيباً ماهراً له ولأسرته . ومهندساً يحذق بناء الجسور والقلاع ، مصحوباً بنجار مختص بهذا الفن . ومهندسا للرى والقناطر ، ونحاتاً لزخرفة السبل والبرك . وخبازاً يدرب العسكر على عمل البقسماط . وبضع أسر من الفلاحين ليدربوا شعبه على طرق الزراعة الفنية مع مايلزمها من بقر وأدوات . وكلف وكيله ليونسينى شراء أربع بقرات وثوراً من الجنس التسكانى الممتاز لتحسين نسل البقر اللبنانى . وأخذ على عهدته اسكانهم وحمايتهم وتقديم الرواتب التى تعينها الأسرة المالكة لكل منهم . فضلا عن كاهن يخدمهم فى الروحيات .

وطلب سراً كمية وافرة من أسلحة المشاة والخيالة . وقارباً لاتينياً يخدمه عشرة بحارة ليهرب بأمواله إلى تسكانا عند الضرورة . وسلم الوكيل المذكور قائمة بالبضائع التسكانية

التى تروج فى لبنان وسوريا ، وأخرى بالبضائع اللبنانية التى يصلح تصديرها إلى ايطاليا . فاهتمت الاسرة بتلبية مطالبه .

وفى السنة ١٦٣١ أوفد الامير الشماس ابراهيم الحاقلاني العالم الشهير بخمس وأربعين بالة حرير وأمره بأن يقدم واحدة منها إلى الكردينال مديشى Medici لقاء مكتب جميل قدمه المـــذكور له ، وأن يبيع البقية بمعرفة الغراندوقة ويودع ثمنها فى مصرف الرحمة Mont de piété بفلورنسا باسمه وباسم أولاده الثلاثة الصغار ، فساعدت الغراندوقة الحاقلانى على اتمام مهمته .

ثانياً — الاعمال العمرانية : لا شك أن أميرنا مدين بتربيته الفنية إلى روائع الهندسة والنحت والتصوير التى شاهدها فى أثناء اقامته فى ايطاليا ، لا سيما فى فلورنسا . فتأثيرها فيه باد فى الوصف الذى أودعه رحلته المنشورة فى الخالدى . وقد باغتته حملة السنة ١٦٣٣ وهو غارق فى مشاريعه العمرانية العظيمة من هندسية وزراعية وصناعية . لأن الفنيين التسكانيين وصلوا إلى لبنان فى السنة ١٦٣١ وغادروه فى السنة ١٦٣٣ التى جاءت فيها الحملة المذكورة

وقد أكد لنا الرحالة ماجرى Magri «أن الايطاليين شيدوا قصر الأمير الفخم فى بيروت على الطراز الايطالى ، مع الجنائن والاسطبلات وأقفاص الوحوش اللاحقة به » . ووصف السياح الذين زاروا هذا القصر بأنه « من عجائب الشرق » ، وبقيت اسطبلات القصر الشهيرة وقسم من الدار المشيدة فوقها قائمة إلى السنة ١٩٣٢ . فأزيلت .

وقد كتبنا آنئذ فى مجلتنا « كلما مررنا بهذا الاثر الجميل لا نتمالك من التأثر لرؤية العقود البديعة ، التى شاهدت عظمة أعظم أمير لبنانى ، تهدمها يد الجهل لتقيم مكانها الاعمدة المسلحة . فنشعر أن مجد لبنان وجماله وجلاله يسقط أمام المدنية الحاضرة النفعية ، التى لا مجد لها ولا جمال ولا جلال » .

ومن آثار البعثة التسكانية المشرع أو سبيل الماء الذى أقامه فخر الدين فى بيروت تخليداً لذكرى كنته زوجة الامير علي وقد اختطفتها المنية فى ريعان الصبا . وصفه الرحالة موندرل Maundrell « بأبدع ما شاهده فى الامبراطورية العثمانية » . وقد أدخلت هذه البعثة إلى بيروت ، فالى الجبل وإلى الشرق هندسة واجهات المنازل الزجاجية المرتكزة على أعمدة

وأقواس رشيقة والمفتوحة على صحن الدار لتموينها بهواء البحر البليل صيفا ، وبأشعة الشمس الدافئة شتاء. وهي تشاهد حتى اليوم في البيوت الكبيرة القديمة .

ونظمت أيضا هذه البعثة داخل الدار . فنسقت الغرف وجعلتها مستقلة مفتوحة على فناء واسع لراحة أفراد المنزل .

ومن آثارها برج الكشاف الذي أقامه الأمير سنة ١٦٣٢ على زاوية قصره ليكشف منه الجوار والبحار . جعل ارتفاعه ستين قدما وسمك جدرانه اثنى عشر مما يدل على أنه كان ينوي تعليته . وقد أعطى اسمه لساحة البرج . وقد كلف الأمير المهندس التسكاني فاني Fagni بناء جسر نهر الأولى بقرب صيدا . فجعله عقــدا واحدا ، فأصبح من عجائب الهندسة في ذاك العصر . وحضر الأمير نفسه وضع الحجر الأول من أساسه فأخفى فيه قطعة من النقود الذهبية المنقوشة برسم صديقه الغراندوق قزما الثاني .

ومن أعمال هؤلاء المهندسين اعادة القناطر التي كانت تحمل جسر نهر الكلب ، وترميم جسر نهر بيروت وبناء حصن وخان قبلي نهر القاسمية واصلاح قصر صيدا الصليبي وترميم خان الفرنج في هذه المدينة .

وتنسيق حرج الصنوبر في بيروت . فأصبحت أشجاره صفوفا منظمة تراها خطوطاً مستقيمة من أي جهة جئتها . هذه الغابة الظريفة الأنيقة ، المنبسطة على أقدام الجبل ، ما زالت حتى اليوم ذكراً حياً نضراً عاطراً للعلاقات الطيبة النافعة بين تسكانا وهــذا الجبل الشيخ والفتى معاً ، الذي تغنت به الأسفار المقدسة كمثال أعلى للجمال الكامل الخالد .

ثالثاً — العلاقات السياسية : لم تكن هذه المشاغل لتلهي الأمير عن مشروعه العزيز على قلبه الرامي إلى احلال حلفائه الأوربيين بجانبه في القدس وبقربه في قبرس بعد أن أحل مرسليهم في مملكته واستدرج تجارهم ومراكبهم إلى موانئه . وقد أشرنا سابقا إلى علاقاته السياسية بفردناند الأول وبابنه قزما . فنقتصر هنا على كلمة سريعة في علاقاته السياسية بحفيده فردناند الثاني .

ففي السنة ١٦٢٤ كان قد أتم الوحدة اللبنانية وأصبح سيد سوريا وفلسطين . ففاتح بنياته دولة تسكانا وهذه عمدت إلى جمع المعلومات عن بلاده وخاصة عن مدينة صور

ومينائها الممتاز . فالرسم والتقرير الموضوعان فى تلك السنة والمنشوران فى الجزء الأول من كتابنا يدلان على أن الأمير قد عينها مركزاً للحملة التسكانية

وفى السنة ١٦٢٥ لما أوفد أوربانس الثامن الأب توما نوفارا P. Tommaso da Novara إلى فلورنسا للاتفاق على الحملة شهد الغراندوق بفخر الدين «أنه أمير باسل حكيم . فما عرضه جدير بأن يؤخذ بعين الاعتبار» .

وفى السنة ١٦٣٠ أرسل الغراندوق إلى الأمير ، نزولا عند طلبه ، رسمي قلعتى نيحا والشقيف ، ووعده أيضا برسوم قلعتى بانياس والمغارة استعداداً لترميمها فضلا عن رسم ميناء صور .

وأفادنا الأب روجيه Roger أن الأمير عقد مع الغراندوق محالفة تعهد فيها هذا بأن ينجده بستة آلاف مقاتل قديرين على القتال . ولما انفجرت حرب البيمونت Piemonte اضطر الغراندوق أن يرسلهم إلى ملك أسبانيا على أن يوفدهم بعد انتهاء هذه الحرب لتسلم حصون بيروت وصيدا وصور واحتلال بعض الأراضى اللبنانية . إنما أوفد حالا بعثة من المهندسين والخبراء الحربيين والخبازين مع كمية من المفرقعات والمدافع . فقضوا سنتين فى فى تحصين القلاع وتجهيزها بما يلزم من المؤن والذخائر .

وكان الأمير قد وجد طريقة لاحتلال القدس دون مقاومة لأن سنجقها وعده بتسليمها يداً بيد .

* * *

لا شك أن اقدام فخر الدين على هذا المشروع الخطير والسعى فى انجازه مدة ثلاثين سنة يعد من أعظم مفاخره . حاول أولا الاتفاق عليه مع ملكى اسبانيا وفرنسا ومع عواهل تسكانا ومع الكرسى الرسولى وفرسان مالطة . ولما رأى أعراضهم عنه حصر آماله فى دولتى تسكانا والكرسى الرسولى . واكتفى منهما بستة آلاف محارب يضبطون قلاعه الساحلية ، وبخمسين مركبا تحتل قبرص وتحمى شواطئه من هجمات الأسطول العثماني . وكان واثقاً بأن يصمد فى البر وحده أمام جميع القوات العثمانية . صرح بذلك فى السنة ١٦٠٨ وأقام

عليه البرهان فعلا فى السنة ١٦١٣ لما ردت قلاعه وجيشه أربعة وثمانين ألفاً بقيادة أحمد باشا الحافظ .

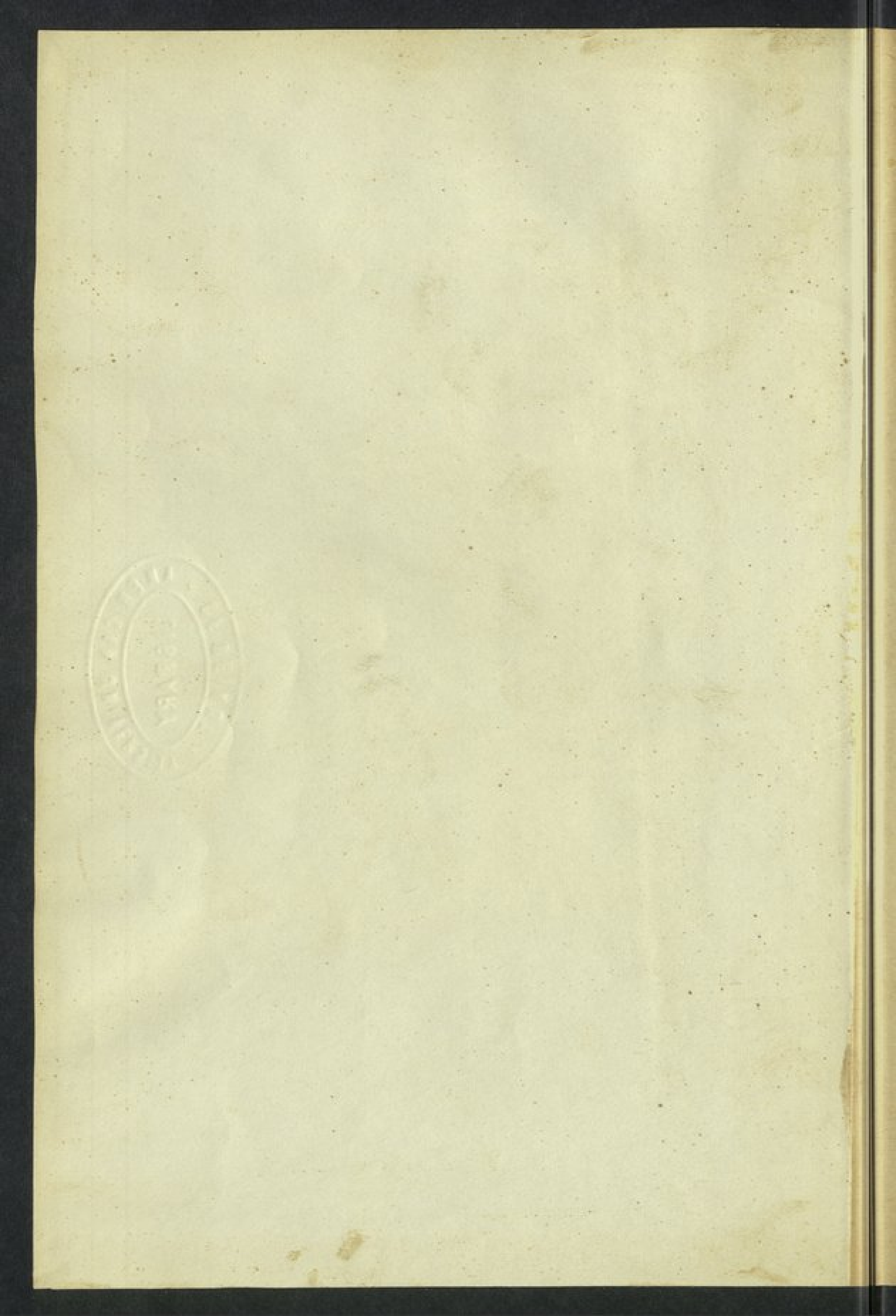
فمشروعه إذاً مع خطورته لم يكن ضرباً من الأوهام . لأنه استطاع وحده ، دون مساعد أجنبي ، أن يوحد لبنان وان يضم إليه سوريا وفلسطين وشرق الأردن وجزءاً من الأناضول وأصبحت أورشليم فى متناول يده . فان دفع برأسه ثمن جرأته لم يكن الذنب ذنبه . لوشاء أمراء أوربا لسلمهم القدس يداً بيد وأعاد المدنية المسيحية إلى الشرق مزدهرة ، ووفر على رعايا الدولة العثمانيـة المسيحيين ثلاثة قرون من الاضطهادات والمذابح ، وعلى الانسانية صفحات مخجلة من التعصب والظلم والهمجية .

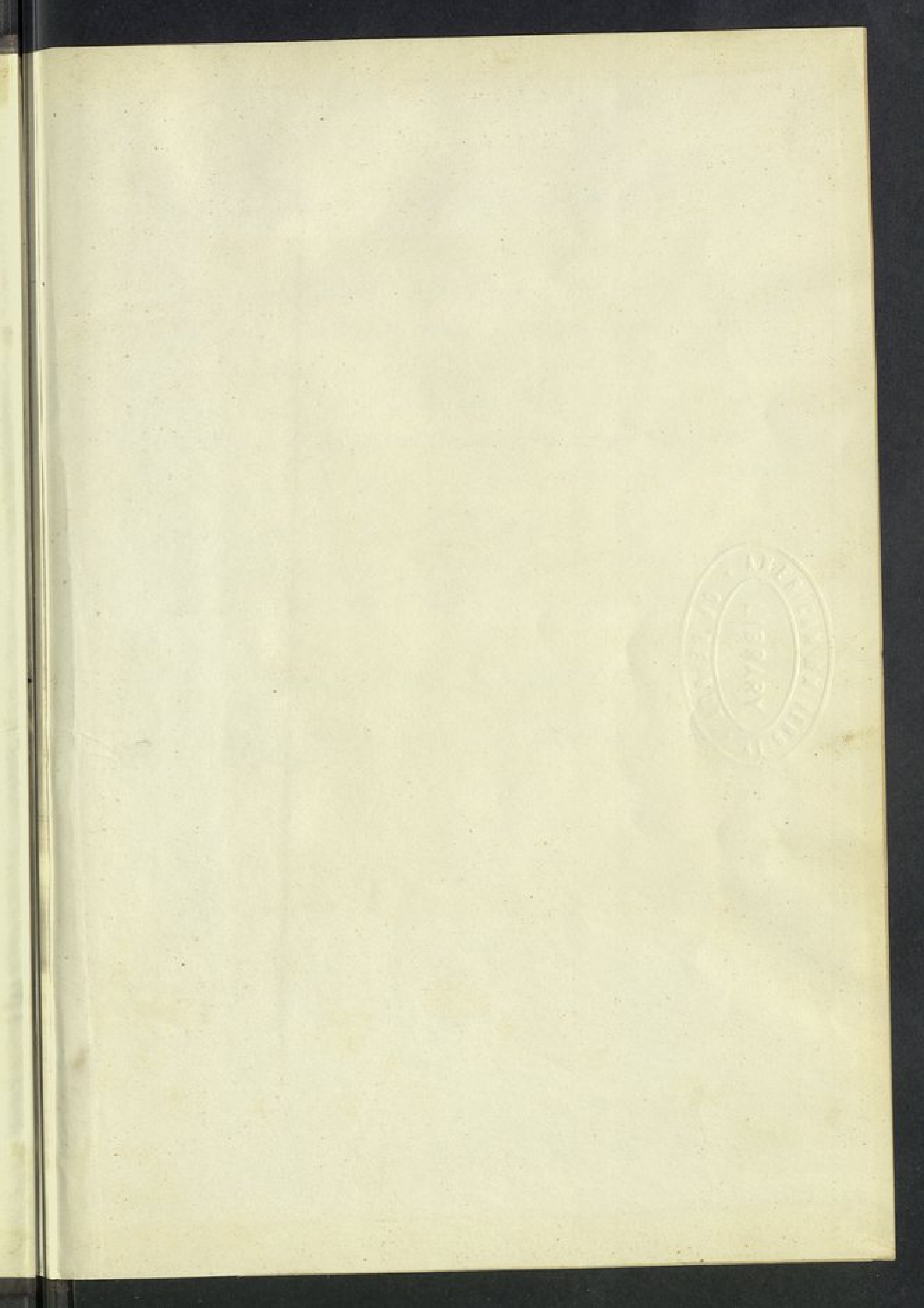
ومع ذلك فعمله لم يمت معه . فقد ضمن لأسرته وانسبائه الحكم أكثر من قرنين ، وللبنان وحدته واستقلاله ، ولشعبه الراحة والرفاهية والنهضة القومية والثروة التجارية والزراعية والصناعية . فأصبح لبنان حصن الحرية والاستقلال فى الشرق ومنارة ثقافته ومبعثاً لنهضته الحاضرة .

كان اذن فخر الدين عظيما بأخلاقه وإدارته وسياسته فكتب لاسمه الخلود

مصر الجديدة فى ٧ نيسان ١٩٤٩

الخوراسقف بولس قرألي






AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت